د . كامل البوهي

دعوة إلى السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

من عمـــل صالحـــا من ذكر او انثى وهـــو مؤمـــــن ، فلنحيينـــه حيـــاة طيبـــة ، ولنجزينهم اجرهم باحســـن ما كانوا يعملون

صدق الله العظيم


دار وهدان للطباعة والنشر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أسعد خلق الله ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، اللهم اجعلنا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

اما بعد ، فقد نظرت فى انحاء العالم الاسلامى ، فهالنى ما رايت من شقاء الأفراد والجماعات ، وأفزعتنى مسحة من الحزن ترتسم على الوجوه ، وتعبر عن هم دفين يملأ القلوب ، وفكر سقيم ينغص الحياة .

ثم التقيت بعدد كبير من الأوربيين ، فاذا هم يلاحظون هذه الملاحظة ، ويضيفون اليها من رواسب التعصب القديم ، ما يزعمونه من أن الاسلام وراء هذه الظاهرة ، وانه يغذى هذه النزعة الحزينة ، والشقاء الذى يلقى بظلاله الكثيفة على أنحاء العالم الاسلامى .

ولكم أن تتصوروا اثر ذلك فى نفسى ، حينما وجدت بعض أدعياء العلم من المسلمين ، يؤكد أن ما ورد فى قصة قارون « **اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين** »(١) يبرر

---

(١) الآية رقم ٧٦ من سورة القصص .

هذا الاتجاه ، ويدعو الى حيـــاة مكفهرة عابسة ، ملؤها الوجوم والاكتئاب ، وجوهرها الخوف والتردد والارتياب .

ولمـــا كنت واحدا من المسلمين احيا سعيدا باســـلامى ، واستمع الى دقات قلبى تلهج بالحمد ليل نهار ، والى بلابل روحى تصدح بالايمان فى اليقظة والمنام ، واشـــعر بفيض من الرضـــا يغمر حيـــاتى بالســـعادة ، ودافق من السرور يملأ صـــــدرى بالانشراح ، ويطلق لسانى بالحمد ، فقد عزمت على اصـــدار هذا الكتاب ، لعله يكشف لأبناء هذه الأمة عن جوهر الاســـلام ، ويدعو غير المسلمين الى اعـــادة النظر فيما ورثوه من تعصب ، وما القت به الرواسب التاريخية فى اذهانهم من أفكار ضد هذا الدين الانســـانى السمح ، لعلهم ينتفعون بمبادئـــه الأصيلة ، ويرتفعون الى غاياته النبيلة .

ومما لاشك فيه أن ارسال الرسل وانزال الكتب ، لم يكن الا رحمة من الله بعباده ، فسعادة البشر فى الدنيا والآخرة هى الغاية ، والا فلم أرسل الله الرســـل وانزل الكتب ؟ !

وهـــل يمكن ان يظن احد من المؤمنين ان الله يحتـــاج الى عبادتنـــا ؟

استغفر الله ! سبحانه هو الغنى ، لا ينفعه ايمان من آمن ، ولا يضره كفر من كفر ، من اجل ذلك نؤكد ان ســـعادة البشر كانت الهدف الأساسى للأديان .

وكما نعجب من الذين لا يعرفون ان الدين دعوة للسعادة فى الدنيا والآخرة ، نعجب اكثر واكثر من الذين يزعمون ان الدعوة

للسعادة يمكن أن تكون دون العمل على توفير اسبابها ، فاذا هي سذاجة وغفلة ، واذا هم يقدمون — دون أن يشعروا — تبريرا للذين يزعمون ان الدين افيون الشعوب .

وان تعجب من اولئك وهؤلاء ، فعجب قول من يفصل بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ان الملحدين الذين ينكرون البعث والحساب ، ويظنون ان سعادة الدنيا وحدها هى الغاية ، انما يغالطون انفسهم ، وكانهم لا يرون بأعينهم أن متاع الدنيا قليل ، وان اية سعادة فى الدنيا مهما عظمت ، فان زوالها اكيد — بانتهاء عمر الانسان ومفارقته لها ، او بزوال النعمة أو زوال الدنيا نفسها — وان ضرورة زوالها يعتبر نقصا خطيرا فيها ، من أجل ذلك تجد ان الطريق الوحيد للسعادة الحقيقية فى هذه الدنيا ، هو ربطها بسعادة الآخرة .

واما الذين يظنون انهم لن ينالوا سعادة الآخرة الا بالشقاء الدنيا ، فقد غفلوا عما دعا اليه الاسلام من تنظيم للحياة ، بحيث يسعد فيها الأفراد ، وتسعد الجماعات الصغيرة ، والأمة الكبيرة ، كما غفلوا عن سر الدعاء الذى هدانا اليه القرآن الكريم ((**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار**))(٢) وعن سر الدعاء الذى نبهنا اليه الرسول الكريم : (اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة امرى ، واصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، واصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر) .

ادعية من القرآن والسنة ، جامعة لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، فليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ، ولكن من اخذ من هذه وتلك .

---

(٢) الآية رقم ٢٠١ من سورة البقرة .

اخى المسلم ، أختى المسلمة :

أن الاسلام حب للخير يملأ القلوب سعادة والحياة بهجة ، وان الاسلام عبادة تسمو بالنفوس ، وتصلها بالملأ الأعلى ، فتغمرها السكينة وتعمرها الطمأنينة ، وان الاسلام عدالة تعصم حياتنا من العدوان ، وتنظم علاقاتنا بالأحياء والأشياء ، بالأسرة الصغيرة فى البيت والعمل ، وبالمجتمع الكبير فى الشعب والأمة ، وفى المجتمع الأكبر فى الأسرة العالمية ... كما تنظم علاقاتنا بالكون والطبيعة ، بالنبات والحيوان والزمان والمكان .

فالاسلام يصقل عقلك بالثقافة النظيفة ، وينير بصيرتك بالفكر المستقيم ، ويخرجك من ظلمات الكفر والجهل والاضطراب ، الى نور الايمان والمعرفة والسلام النفسى ، وهو يحررك من عبادة أهوائك ، ومن عبادة أصنام الحجر واصنام البشر ، ومن الخضوع الذليل للتقاليد البالية ، ومن الاستسلام المهين لاغراء الذنوب .

الاسلام بهذا كله دعوة للسعادة الحقيقية ، دعوة تقوم على أساسين قويين ، حب الخير ونقاء السريرة .

وتستند الى دعامتين عظيمتين ، وعى مؤمن وعبادة صادقة .

وتستظل بغطائين واقيين ، هما العدل والتراحم .

وهو لذلك يحقق السعادة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، فاذا قرأت الباب الأول من هذا الكتاب عن سعادة الفرد ، والباب الثانى عن سعادة المجتمع ، ولبيت الدعوة ، فانى على يقين من أنك ستكون من السعدان ، والله ولى التوفيق .

د. كامل البوهى

البــاب الاول
سعادة الفــرد

سعادة الفرد

هل يستطيع احد أن يهبك السعادة ؟

أو يستطيع انسان أن ينزعها منك ؟

اذا كان الأمر كذلك ، فقد سلمت مقاليد حياتك لهذا الذى يملك من أمرك كل شيء ، يملك أن يهبك السعادة ، أو يلقى بك فى أتون الشقاء ، وبذلك تفقد انسانيتك ، وتهدر استقلالك وذاتيتك ، وتصبح ظلا لانسان ، أو عبدا ذليلا لمن يتحكم فى أمرك ، ويقضى بشقائك أو سعدك .. وتكون قد ضللت الطريق الى السعادة ، بل تخليت عن كل أسبابها ، ورفضت نعمة الله الذى خلقك حرا ، وسواك انسانا ، لتختار لنفسك ، اما سعادة الدنيا والآخرة ، واما شقاء الأبد وذل العبودية لغير الله ، والتبعية لشياطين الانس والجن :

جلست أسماء بنت ابى بكر بين صواحبها ذات مرة ، ثم استمعن اليها تلهج بالحمد ، وتعبر عما تحسه من سعادة غامرة ، لا يستطيع أحد أن يكدر صفوها ، أو ينتزعها منها .

وسألتها احدى صواحبها : ما هذا الذى تقولين يا أسماء ؟

فقالت أم عبد الله(۱) : (ان سعادتى فى ايمانى ، وايمانى فى قلبى ، وقلبى لا سلطان لأحد عليه الا الله) .

---

(۱) هى اسماء بنت ابى بكر الصديق وأم عبد الله بن الزبير ، وكانت تعرف أيضا بذات النطاقين .

وقد أحسنت ذات النطاقين تصــوير احاسيسها ، واجادت التعبير عن شــعورها بالســعادة الحقيقيــة ، ســعادة المؤمن بايمانه .. ولعلنا نذكر أن الفوز العظيم الذى تؤكده الآيــات الكريمة للمؤمنين والمؤمنات ، يفسره العلماء فى ايجــاز ، بأنه سعادة الدنيا والآخرة .

ليست السعادة اذن فى جمع المــال ، ولا فى امتلاك ما يمكن أن يسرقه اللصــوص ، أو يحرقه الأعداء ، أو ينهبه الحاقدون ، أو يسلبه المعتدون .

ليست السعادة فى الثراء العريض .. والجمال الفاتن ، والارستقراطية العريقة ، أو المنصب المهيب .

ان هذه الأمور كلها ان لم يرافقها شعور يقينى بانها من فضل الله ، وانها ينبغى أن تقابل بالحمد والرضــا والسعادة ، قد تنقلب الى شرور تطغى الانسان وتقوده الى الهاوية .

انما السعادة الحقيقية فى الرضــا بما انعم الله به عليك ، السعادة الحقيقية فى معرفة النعمــة وشكر المنعم ، الســعادة الحقيقية شعور داخلى بأنك انســان كريم على نفســك ، كريم على الله ، تحيا فى كنفه ، وتعمل ابتغاء مرضاته ، فيهتف قلبك قبل أن ينطق لسانك « الحمد لله » .

السعادة الحقيقية أن تدخل جنة الدنيا من اوســع ابوابها بالرضــا ، وجنة الآخرة فى أول أفواجهــا بالحمد ، كما وعدك البشير النذير فى قوله :

(أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الحمادون ، الذين يحمدون الله فى السراء والضراء) .

ولعلك فكرت يوما فى وصفه صلى الله عليه وسلم بالبشير النذير ، وعرفت صلة هذا الوصف بالسعادة والشقاء ، فقد جاء عليه الصلاة والسلام يبشر المؤمنين الصادقين ، اى يخبرهم بما يسرهم ويسعدهم ، وينذر الكافرين والمنافقين ، اى يخبرهم بما يسوءهم ويشقيهم .

من اجل ذلك ناديتكم جميعا ، ناديت كل مسلم بالفعل أو بالاستعداد ، وكل مسلمة بالفعل أو بالاستعداد ، لأدلكم على طريق السعادة الحقة ، وأراكم ترفلون فى حللها ، وتتقلبون فى جنباتها ، ويسعد بكم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويصور سعادته بهذه الكلمات النورانية : (عجبت للمؤمن ، ان امره كله خير ، وليس ذلك الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء ، صبر ، فكان خيرا له) .

ومما لاشك فيه أنه صلى الله عليه وسلم ، حينما دعانا لنحيا فى الخير مهما كانت ظروف الحياة ، فى السراء والضراء . . وحين صور المؤمن بانه سعيد دائما ، سعيد بايمانه ، بفطرته النقية ، فقد رسم لنا طريق السعادة ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم ، الذى يحظى به السعداء **« ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »(٢)** .

وفيما نقرأ من فصول هذا الباب ، نتعرف على اسباب سعادة الانسان ، سعادة الفرد فى خاصة نفسه ، رجلا كان او امرأة ، فى أى قطر من اقطار الأرض يعيش ، من جيلنا هذا أو من أى جيل ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(٢) الآية رقم ٧١ من سورة الأحزاب .

ورغم كل الخلاف الذى يسوقه الجدليون حول تعريف السعادة ، ورغم اختلاف الناس حول اسبابها ودواعيها ، فالكريم الجواد يسعد اذا راى ضيفه سعيدا ، والبخيل الشحيح يشعر بالتعاسة اذا اضطر أن يضع يده فى جيبه لينفق ، والذين يكنزون الذهب والفضة يسعدون لمجرد رؤيتهم لبريقها ، والدعاة والمصلحون يسعدون اذا راوا استجابة الجماهير لدعوتهم ، والقانع يرى سعادته فى ان يسلم من الناس ، ويتمثل دائما بقول الشاعر :

وان امرءا يمسى ويصبح سالما
من الناس الا ما جنى لسعيد

رغم ذلك الاختلاف ، فان هناك اجماعا على ان كل عاقل يطلب السعادة لنفسه ولمن يحب ، فاذا كان مع ذلك بعيد النظر ، فلن تغره سعادة الدنيا وحدها ، وانما سوف يدعوه طموحه ويهديه ايمانه ، ليجمع سعادة الدنيا وسعادة الآخرة :

دعانى طموحى للمعالى وعندما
بلغت ذراها طال شوقى لغيرها
لما عند ربى من نعيم وجنة
حنينى اليها ، ظلها وعبيرها

الفصـــل الأول

ولقد كرمنا بنى آدم(١)

هل تعرف ان الخـــالق جل جلاله ، كرمك غاية التكريم بان جعلك انسانا ؟

ان مجرد انتمائك الى آدم عليه السـلام ، جعل الكون كله مســخرا لك « **وسخر لكم ما فى الســموات وما فى الأرض جميعا** »(٢) والقرآن الكريم يلفت انظار كل الناس « **الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، واسبغ عليكم نعمـه ظاهرة وباطنة ؟** »(٣) .

صحيح ان بعض الناس يابى هــذا التكريم ، ويصر على انه ينتمى الى اصـول حيوانية ، وان القرد ابوه أو جده ، وقد يسلك فى حياته سلوك الحيوان فعلا ، والى هؤلاء واضرابهم ممن كرمهم الله فابوا الا الانحطـــاط ، تشير سورة التين ــ « **والتين والزيتون وطور ســينين ، وهــذا البلد الأمين ، لقد خلقنـا الانســان فى أحســن تقويم ، ثـم رددناه أسـفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحــات ، فلهم اجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، اليس الله باحكم الحاكمين ؟ !** » .

ولعلك تبتسم حين تعرفه ان صحفية أوروبية جاءت الى مصر تجرى تحقيقا صحفيا عن ادبائها ، وحدثها بعض أبناء جنسها فى

---

(١) الاية رقم ٧٠ من سورة الاسـراء

(٢) الاية رقم ١٣ من سورة الجاثية .

(٣) الآية رقم ٢٠ من سورة لقمان .

مصر عن الاديب المعروف ابراهيم عبد القادر المازنى ، ولم ينس ان يبين لها أن هـذا الاديب ينتمى الى أسرة عريقة ، وحين التقت الصحفية المثقفة ثقافة عصرية بالأديب المسلم ، أوقعتها ثقافتها فى فخ من المفخاخ المخجلة ، فقد بادرت بسؤاله : علمت انك تنتمى الى اسرة عريقة فى المجد ، فهل يمكن أن نعرف شيئا عن مفاخر أجدادك ؟ واستهان الأديب الكبير بما سمع من سطحية فى التفكير ، فوضع احدى رجليه على الأخرى ، واسند ظهره الى وسادة على أريكته ، واصطنع لونا من الجد الصارم ، ليشعرها بالخطأ الجسيم الذى قادها الى هذا السؤال ، وأجابها على الفور : نعم ، انى أنتمى الى خير جد فى الوجود . وسألته الفتاة فى دهشة :

ومن هو هـذا الجد ؟ ! فقال لها : انه آدم عليه السلام ، اول انبياء الله فى الأرض .

وخجلت الفتاة التى لم تتعود الخجل

هل عرفت يا صديقى أن اول سبب يدعوك الى السعادة والانتعاش ، أنك تنتمى الى من سجدت له الملائكة ، الى نبى اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى . .

ان شجرة الأسرة التى تنتمى اليها قد لا تلتقى مع اى من الأنبياء بعد آدم ، ولعلك تعرف أن كثيرا من الناس يهتم اهتماما شديدا بهذه الأشجار ، لا سيما اذا كانت تصله بأحد الأنبياء ، وله أن يعتز بذلك اذا أراد . . أقصد اذا سلك منهجا فى الحياة لا يبعده عن الانتماء السلوكى لأجداده الأكرمين . . ولكنك سوف تعجب كل العجب من رجل انقطع عن أصحابه واعتكف فى منزله عشرين سنة ، ولما سألوه عن سبب هـذه العزلة الطويلة ،

اجاب بأنه كان يحقق شجرة أسرته ، وقد استطاع أن يصل بها الى آدم عليه السلام !

وكان التعليق اللائق بهذا البحاثة المثابر : كل هذا الجهد لتثبت انك من بنى آدم ؟! !

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

ان أبى وأباك حينما عصى ربه لم يتملكه اليأس ، وانما تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ... وهو يعاملك على هذا الأساس ، يسمح لك أن تقف بين يديه ، تخاطبه ، تسأله ، ترجوه .. تلجأ اليه .. تدعوه .. (الله الصمد) .

هل هناك تكريم اعظم من هذا التكريم ؟ !

من اجلك انت ، أرسل الرسل يبذلون كل جهد ليرشدوك الى طريق السعادة ، ومن اجلك انت انزل الكتب فيها هدى ونور ، ومن اجلك خلق هذا الجمال « **حدائق ذات بهجة** »(٤) ويصف القرآن الكريم فصائل النبات أيضا بالبهجة « **وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** »(٥) كما يصف الخيل والبغال والحمير بالنفع والزينة « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون** »(٦) ويصف الأنعام أيضا بالجمال « **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** »(٧) .

ولعل احد المتشائمين يعترض فيقول ، نعم ، خلق لنا الجمال ، خلق لنا الحدائق البهيجة ، والخيل والبغال والحمير ،

---

(٤) من الآية رقم ٦٠ من سورة النمل .

(٥) من الآية رقم ٧ من سورة ق

(٦) من الآية رقم ٨ من سورة النحل .

(٧) من الآية رقم ٦ من سورة النحل .

خلق لنا هــذا كله ، وخــلق ابليس ، وخلق الشرور والمصائب والكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة .. وأنت تغمض عينيك من هذا كله ، وتتحدث عن تكريم الله للانســان .. اين هــذا التكريم وقد سلط علينا الشياطين تغرينا بالشرور ، وتسوقنا الى الشقاء ؟ الم يكن من التكريم ان يخسف الأرض بهذا الابليس حتى لا تكون له ذرية تنشر الشرور ، وأتباع يرتمون فى إحضان الرذيلة ويدعون اليها ؟ الم يكن من التكريم الا يخلق الجراثيم والميكروبات والافاعى والحيات ؟ . الم يكن ...

وينفعل هــذا المتشائم المعترض غاضبا على ابليس وذريته وجنوده ، ناسيا انه بذلك يصبح من جنوده ، ولكنى ألفته فى هدوء الى حكمة الحكيم فى خلق هــذه التحديات .. انها لاثارة حماسك وتنشيط جهودك ، وايقاظ مواهبك من رقادها ، ومدها بموجات من الحيوية ، يتبع بعضها بعضا ، ويتضافر بعضها مع بعض ، لدفع هــذه الشرور ، وتذوق السعادة عند الانتصــار عليها ، وتحقيق الهدف الاسمى لخلق الانسان فى تعمير الأرض ، وتحويلها الى جنة وارفة الظلال ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ولمثل هــذا فليعمل العاملون .. فانظر يا أخى الى ما أســبغ الله عليك من نعمائه ، ومنها هذه النعمة ، نعمة التحديات ، وقد امدك باسلحة التغلب عليها ..

انظر .. واسعد .. وسبح بحمد ربك ، واعرف قــدر نفسك ، فانك عبد كريم ، وبهذه العبودية وهــذا التكريم ، أنت سيد هــذا الكوكب ..

فهل هنــاك تكريم بعد هذا التكريم ؟

أجل ، هنــاك تكريم يضاف الى هذا التكريم ، انه سبحانه جعل حملة العرش من ملائكة السـماء الابرار ، يستغفرون لك

ليل نهار ((**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم**))(٨) .

بل انه سبحانه يصلى علينا مع ملائكته الابرار ، والصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة دعاء ((**هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور**))(٩) .

يا للسعادة .. ملائكة السماء ، ورب الأرض والسماء ، يصلون علينا ، نحن اذن فى رعايته نعيش ، ونتقلب فى السعادة ، نسعى ونسجد ، ونسبح مع الأطيار فى جو السماء ، مع الأفلاك نسبح ، تسبيح الكون كله تشعر به حين تسبح انت أيضا ، انك بالعبادة والتسبيح تصبح منسجما مع الكون المسبح بحمد الله، فاذا عرفت أن السبح هو السعى الدءوب ((**ان لك فى النهار سبحا طويلا**))(١٠) وان كل الكواكب تسعى ((**وكل فى فلك يسبحون**))(١١) عرفت صلة السبح بالتسبيح ، وصلة العمل بالعبادة .

---

(٨) الآيات رقم ٧ ، ٨ ، ٩ من سورة غافر .

(٩) الآية رقم ٤٣ من سورة الاحزاب .

(١٠) الآية رقم ٧ من سورة المزمل .

(١١) الآية رقم ٤٠ من سورة يس .

ان الجبال كانت تسبح مع داود عليه السـلام ، والطير ايضا تسبح « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم** »(١٢) انكم لا تفقهون تسبيحهم ، ولكنكم بالايمان تنسجمون مع النغم الكوني كله ، حينما تسبحون مع كل شيء ، وتسبحون فى بحـار السعادة الايمانيـة .

(١٢) الآية رقم ٤٤ من سورة الاسـراء .

الفصل الثانى

الحمد لله

هل تعرف أقصر طريق الى السعادة ؟

انه طريق الحمد ، أن تحمد الله فى السراء والضراء ، ولذلك يقول الامام ابن تيمية :

(ان فى الدنيا جنة ، من لم يتذوقها لن يدخل جنة الآخرة) ولكن العلماء فى عصر ابن تيمية لم يفهموا عنه ، ولم يعرفوا ماذا يقصد بهذه الجنة الدنيوية التى يؤكد أن تذوقها شرط الفوز بالجنة فى الآخرة ، ثم عادوا الى الهدوء بعد فورة الغضب ، حينما بين لهم أن الرضا هو جنة الدنيا ، يسعد به صاحبه ، وهو فى الوقت نفسه شرط أساسى لرضوان الله عنه ، ومن لم يرض بما قسم الله له ، من لم يعرف قدر النعمة ، فليس أهلا لسعادة الدنيا ولا لسعادة الآخرة .

ولكن قل لى بربك ، ماذا يستطيع الساخط أن يفعل ؟ انه سوف يشقى بسخطه ، ثم لا يستطيع شيئا ((**فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ**))(١) بينما يسعد الراضى ويسعى منشرح الصدر ، مليئا بالأمل والتفاؤل ، فيزيده الله من نعمائه ((**واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد**))(٢) .

---

(١) الآية رقم ١٥ من سورة الحج .

(٢) الآية رقم ٧ من سورة ابراهيم .

ثم تعــال بعد ذلك ننظر فى معنى النعمة ، ولعلك قد لحظت ان النعمة والنعماء والانعام ونعومة العيش والنعيم ، كلمــات ترجع الى أصــل واحد ، وقد عرفت فى الفصل الأول ان النعمة الأولى هى ان الله خلقك انسانا ، ولتعرف هنا أن نعم الله كثيرة لا تحصى ((وان تعدوا نعمة الله لا تحصــوها))(٣) وهــل يمكن احصـــاء النعم فعلا ؟ ان نعم الله لا تحصى . ومـــاذا تحصى ؟ نعمة المـــاء أم الهواء ، نعمة الغذاء النباتى ام الحيوانى ؟ نعمة العقل أو الذاكرة ، بل وفى كثير من الأحيان نعمة النسيان .

اختلاف النهار والليل ينسى   اذكرا لى الصبا وايام انسى

فكم من ذكريات جميلة يحلو لك تذكرها ، وكم من ذكريـــات اليمة من الخير نسيانها ، ولا يمكن استقصـــاء النعم المتمثلة فى وجود الأهل والولد ، والزوج والأخ والصديق ، فى وجود العمل والمجال اللانهائى للنشاط الانسانى .

ونعمة الستر ، يا سبحان الله !

كم تخطىء ويسترك ؟ وكم من عيوب فى الانسان مستورة ، ولولا فضــــل الله ونعمته لكانت مفضوحة منشورة .

غير أن الآفة الخطيرة التى تصيب الناس بشأن النعم ، هى ان كثيرا من النـــاس لا يفكر الا فى النعم الخاصـــة به ، فيما أوتى من مـــال وولد ، فيما أوتى من صحة وعلم ، فيما أوتى من منصب أو جاه ، وقد يراه قليلا فلا يرضى .. لا يرضى عن ربه ولا يرضى عن رزقه ، لا يرضى عن قسمه ، عن حظه فى الحياة ، يسخط نفسه .. يشقيها .. يرديهـــا .. يوردها المهـــالك ، وقليل من الناس من يفكر فى النعم العامـــة ، نعمـــة الشمس

---

(٣) الاية رقم ٣٤ من سورة ابراهيم

والقمر ، نعمة النهـار والليل ، والنور والظلام ، والسـموات والأرض ، والنجوم والكواكب .. نعمة البحار والأنهار ، اكثر الناس لا يذكر نعمة المـاء الا اذا انقطع المـاء ، حينئذ يذكر ان يديه فى حاجـة الى ما يغسلهما به ، وان جوفه فى حاجـة الى ما يطفىء ظمـأه ، وانه لا يستطيع ان يشرب كوبا من الشاى(٤) .

هذه آفة من الآفـات التى تصيب الناس بشأن النعم ، واخرى ان كثيرا منهم يحـاول دائما ان يذكر المصائب بدلا من ذكر النعم ، وقد فاته ان المصائب ليست الا فقدان بعض النعم ، فالأعمى انسان مصاب بفقد نعمة البصر ، والمقعد مصـاب بفقد نعمة القدرة على استخدام رجليه ، والمعدم مصاب بفقد نعمة المـال ، وهكذا كل مصيبة اصلها نعمة مفقودة ، حتى مصيبـة الكفر هى فقدان لنعمة الايمـان ، ومصيبة الموت فقدان لنعمـة الحيـاة .

وهذه المصائب المنوعة يختلف وقعها على الناس ، فمنهم من يشقى بهـا وقد يكفر ، ومنهم من يشعر بانه أدى ضريبـة بعض ما استمتع به من نعم ، أو كفر عن ذنب يعلمه أو لا يعلمه ، ليعيش بعد ذلك مطهرا من الذنوب ، ومن هؤلاء من كان يسعى بنفسه لاقامة الحد عليه ، ليشعر بانه قد تطهر ، ومنهم من يصبر على ما يصيبه ، وكله أمل فى الثواب العظيم **((ولنبلونكم بشىء**

---

(٤) كلمة الشاى ليست كلمة عربية الأصل ، وقد استعملها أحد الشعراء المحدثين (وشربت شايا فى الطريق) وسخر منه ناقد من انصار الشعر العمودى ، فقام الشاعر يدفع عن نفسه فى سخرية لا تقل عن سخرية الناقد ، يؤكد انه يريد ان يقول (شاى) ولا يمكن التعبير عن هذا الشراب الا بهذه الكلمة التى يعرفها الجميع ويستخدمها الجميع ، ثم تساءل : هل تريدنى أن أقول (وشربت كأسنا =

من الخوف والجـوع ونقص من الأمـوال والا نفس والثمرات ، وبشر الصـابرين ﴾(٥) .

والسعداء حقيقة لا تزعجهم المصائب ، ولا نقص الأموال والانفس والثمرات ؛ لأنهم يعرفون أن ما فقدوه ما هـو الا جزء مما سبق أن منحهم الله .

حاسـب زمـانك فى حـالى تصرفـه
تجده أعطـاك أضعاف الذى سـلبا

ان المؤمن الحق يعرف ان ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه .

والألم نفسـه ، الألم الذى يحس به الانسان عندما يغزوه المرض .. نعمـة ، لأنه ينبه صاحبـه الى وجود المرض ليبادر بالعـلاج ، والأمـراض التى تأتى بدون آلام ، بدون انذار ، ولا يحس بها المريض الا بعد أن تستشرى وتتمـكن ، أمراض خبيثة وقانا الله شرها وابعدها عنا وعنك .

ولعلنا نظن أن مصيبة الموت فوق كل مصيبة ، انهـا سلب للحياة نفسها ، ومع ذلك فان الايمان يجعلك تنظر اليها نظرة تختلف تماما عن نظرة الاشقياء والكافرين .

ان الكافر الذى يعتقد أن الموت هو النهايـة ، ولا يؤمن بحياة أخرى بعد الموت ، يشتد حزنه ، لأن الموت فى نظره مصيبة كبرى ليس بعدها مصيبة ، انها الفناء الأبدى ، انها النهاية التى

= من شـراب ساخن) ان ذلك وصف للشاى ولغيره من المشروبات الساخنة ، ولكنى اريد مشروبا بعينه ، اريد الشاى بالذات .

(٥) الآية رقم ١٥٥ من سورة البقرة .

لا قيامة بعدها ، بل انه الى جـــانبه ذلك يرى انه معرض لهذا الخطر الداهم ، الذى يفجأه دون حكمة معروفة ، او قيـــاس مطرد فى الموعد او العلامات ، ويعبر عن هؤلاء الاشقياء شـــاعر جاهلى فيقول دون تبصر :

رايت المنايا خبط عشـــواء من تصب
تمتـــه ومن تخطىء يعمـــر فيهـــرم

ان المسكين لا يعرف انها آجـــال محددة ، ولا يؤمن بان بعد الموت حياة يمكن ان تكون اسعد واحلى وارغد ، من اجـــل ذلك يرتعد من ذكر الموت ، ويتصور انه يتربص له بكل سبيل ، ليدهمه بخبطة عشوائية ، فاين هـــذا ممن يؤمن بالحكمة الآلهية للموت والحياة ، ويعتقد ان الله تصرفا وتدبيرا حكيما فى كل شىء وان وراء هذا الموت حياة ابدية سرمدية لا نهاية لها .

خـــلق النـــاس للبقـــاء فضـــلت
امـــة يحســـبونهم للنفـــاد

من اجل ذلك ، من اجل ايمان المؤمن بقضـــاء الله ، فانه لا يهتز عند المصـــيبة ، وانمـــا يســـمع صـــوت ايمانه يطمئنـــه ((**قل ان يصيبنا الا ما كتب الله لنا**))(٦) .

من اجل ذلك يحمد الله فى السراء وهى ما يسر ، ولا يأخذه الغرور لانه يعلم ان ذلك من عند الله ، ان ذلك اختبار له لعله يشكر ... ويحمد الله فى الضراء ، وهى ما يضر ، لانه يعلم انها اختبار من عند الله لعله يصـــبر ، فيجزيه ربه خير الجـــزاء ، ((**انما يوفى الصـــابرون اجرهم بغير حساب**))(٧) انه فى الحالتين

---

(٦) الاية رقم ٥١ من سورة التوبة .

(٧) الاية رقم ١٠ من سورة الزمر .

سعيد ، فى السراء سعيد ، لأنه يقابلها بالشكر ، وفى الضراء سعيد ، لأنه يقابلها بالصبر **« ان اصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان اصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له »** انه استطاع ان يحول المحنة الى منحة ، ان يحول الفشل الى نجاح ، ان يحول الشقاء الى سعادة ، بفضـــل الايمان ، وقوة الايمان ، وعمق الايمان ، فانه لا يجزع من المصيبة الا من اتهم فى العدالة ربه .

هما اذن فضيلتان : فضيلة الشكر على السراء ، وفضيلة الصبر على الضراء ، وكثير من الناس يريد أن يفصل تماما بين هاتين الفضيلتين ، فضيلة الشكر وفضيلة الصبر ، لكنك لو امعنت النظر لوجدت منبعهما واحدا ، هو النفس المؤمنة الراضية ، هى فى السراء شاكرة ، وهى فى الضراء صـــابرة ، وهى فى الحـــالتين تهتف بكل ما اوتيت من ايمان (الحمد لله) .

صحيح أن بعض النماذج الإنسانية العليا كانت شـــهرتها الشكر ، كانت مثلا اعلى فى مقابلة النعمـــة بالشكر ، وان بعض النماذج الأخرى كانت شهرتها الصبر ، كانت مثلا اعلى فى مقابلة الاختبار بالصبر ، وقد ضرب القرآن الكريم لذلك مثلين ، واوردهما متجاورين ، ضرب مثلا للشكر سليمان عليه الســـلام حينما اغدق الله عليه النعم ، وعلمه منطق الطير ، وسخر له الريح والشياطين ، وجـــاءه الهدهد من ســـبأ بنبأ يقين ، واراد ان يحضر له جنوده عرش بلقيس ، وقبل أن يرتد اليه طرفه ، رآه مستقرا عنده ، فقال **« هذا من فضـــل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم »**(٨) .

ونقرا فى سورة الانبياء طرفا من قصة سليمان عليه السلام **« ولسليمان الريح عاصفة تجرى بامره الى الأرض التى باركنا فيها**

---

(٨) الآية رقم ٤٠ من سورة النمل

وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عمــلا دون ذلك وكنا لهم حافظين »(٩) ونقرأ بعدها مبــاشرة **« وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين ، فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر وآتينــاه اهــله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »**(١٠) .

لمــاذا كان هــذان المثلان متجاورين ؟ لمــاذا كانت قصــة ايوب عليه السلام تأتى مباشرة وبدون فاصل عقب قصة سليمان عليه السلام ؟ لمــاذا نرى هــذا التجاور فى سورة الأنبيــاء كما نراه فى سورة (ص) ؟ فنقرأ قوله تعــالى **« ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك انت الوهــاب ، فسخرنا له الريح تجرى بامره رخــاء حيث اصاب ، والشياطين كل بنــاء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد ، وهــذا عطــاؤنا ، فامنن او امسك بغير حساب ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ، واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشــيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هــذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له اهــله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب »**(١١)

ان الأمر واضح غاية الوضــوح ، ان سليمان عليه السلام آتاه الله من النعم ما لا يمكن للشــكر العادى أن يوفيــه ، ولكن سليمان لأنه نبى صالح وعبد صالح ، لم تطغه النعمة ، انه يعرف أنها من عند الله ، اننا حتى الآن وبكل وســائل العلم الحــديث لا نستطيع تحقيق شيء واحد مما كان لسليمان ، وقد كان منحــة

---

(٩) الآيتان رقم ٨١ ، ٨٢ من سورة الانبياء

(١٠) الآيتان رقم ٨٣ ، ٨٤ من سورة الانبياء

(١١) الآيات من ٣٣ الى ٤٣ من سورة ص

من عند الله ، هل تستطيع حضـــارة الغرب أو الشرق أن تفتح معهداً يعلم الناس لغات الطير ؟ ومن أين ستأتى بالمعلمين ؟ ولكن الله علمها لسليمان (هـــذا عطاؤنا فامن أو أمسك بغير حساب) وقد كان سليمان أوضح مثل للشكر ، كما كان أيوب عليه السلام أوضح مثل للصبر ، من أجل ذلك نجد المثلين متجاورين فى سورة الأنبيـــاء ، وفى ســـورة (ص) ، وكلا الفضيلتين ــ الشـــكر والصبر ــ تجمعهما الكلمة الشاملة الجامعة (الحمد لله) الحمد لله فى السراء والحمد لله فى الضراء ، والناس يفهمون فى ســـهولة ويسر أن يشعر الانسان بالرضـــا ويهتف بالحمد فى السراء ، ولكنهم لا يدركون بسهولة كيف يشعر الانسان بالرضـــا ويهتف قلبه بالحمد فى الضراء ، والايمان الصـــادق يجعل الأمر فى غاية السهولة واليسر ، فان المؤمن اذا اصابته مصيبة فســـوف يمده الايمان بالفكر الذى يعصمه من الشقاء والحزن والغم ، ســـوف يلجأ الى ايمانه مباشرة فيرى أن المصيبة مهما عظمت فانها فى أمر دنيوى ، فى الأموال ، فى الأنفس ، فى الثمرات ، فيحمد الله على أنها لم تكن فى دينه ، وحتى لو كانت فى دينه فان باب التوبة مفتوح على مصراعيه ، الا مصيبة الانتحار ، فانها لا تترك فرصـــة بعدها للتوبة ولذلك لا يمكن للمؤمن أن ينتحر ، ان الايمـــان ســـعادة والانتحار لا يكون الا نتيجة لشقاء وهمى أو حقيقى ، لشقاء نابع أصلا من بعد صاحبه عن الايمان ، واحمد الله انى عرفت ذلك فى فجر الشباب ، عرفته فى قريتى ، فقد كنت أثناء العطلة الصيفية أعود من القاهرة لأعيش فى القرية ، وأعمل فى القرية ، كنت أعمل مع اخوتى فى الحقل .. وفى يوم من أيام رمضان ، فى طريق عودتى من الحقل كنت أركب حماراً واسحب جاموســـة وبقرة .. وكان بجانبى عامل زراعى يعمل عند جيران لنا ، وكان يركب جاموسة ليعود بهـــا الى المنزل .. وفى الطريق ســـمعنا الأذان ، ولكننا لا نستطيع أن نسرع المسير لارتباطنا بالماشية البطيئة ، واذا

رجـــل يمر بنا سريعا يركب حمارا فارهـــا ولا يسحب شيئا من الـمــاشية ..

وعند مروره بنا ســـألنا : لمـــاذا تأخرتمـــا وقد غـــربت الشمس ؟ هل معكما شيء تفطران به ؟ قلنا : لا ، ليس معنا شيء ، ماخرج من جيبه اربع تمرات اخذت منها اثنتين واعطيت العامل اثنتين ، واسرع الرجـــل فى طريقه وتركنا ، اما انا فكنت امسح التمرين وآكل .. وأما صديقى الصغير ، ذلك العامل الزراعى ، فقد اكل التمرتين سريعا ، ثم نزل الى الترعة النجارية التى تسير ازاءنا ، وشرب ... ثم أشرق وجهـــه ، وانفرجت اساريره ، وركب الجاموســـة من جديد ، ثم اخذ يغنى وانـــا انظـــر الى السعادة الغامرة فى وجهه . ان الدنيا كلها لا تسع فرحته ، فقد اكل تمرتين وشرب من ماء الترعة واحس كانه يملك الدنيا كلها ، وكنت سعيدا بما يستطيع الايمان أن يفعله فى النفوس الطيبة ، التى لم تفسدها وساوس الشيطان .

وكانما اراد الله أن تكمل الصـــورة ، فقد وصـــلت البيت ولا يزال الطعام أمام أبى وأمى واخوتى ، وأدركت ما أتيح لى منه ، وكان احد اخوتى يعد أدوات الشـــاى ، وجلسنا حوله قبل أن نخرج للصـــلاة .

وفجـــأة دخل حلاق القرية مسرعا ، وقال فى لهجة مثيرة : الا تعرفون الخبر ؟

ــ اى خبر ؟

ــ لقد انتحر ابن الباشـــا .

ــ انتحـــر ؟

كانت السرعة والاتفاق فى الرد اثرا طبيعيا للدهشـــة التى تملكتنا جميعا ، بدأ الحلاق يحكى :

لقد كانت قضيته تنظر اليوم أمام المجلس الحسبى ، وحذر المجلس الوصى من تبديد التركة بحجة الانفاق على القاصر ، وحدد له مبلغا لا يتجاوزه في الشهر ، ولما علم الغلام بأن الوصى لن يعطيه أكثر من مائتي جنيه في الشهر(١٢) والا تعرض للاتهام بتبديد مال القاصر ، ثار الغلام ثورة من لحقته اهانه لا يمكن السكوت عليها ، ماذا يصنع بهذا المبلغ التافه ؟ ما الذى حدث في الدنيا ؟ الا يكفى انه فقد أباه ؟ وكيف يمكن ان يتحكم فيه الوصى ، أو يتحكم فيه المجلس الحسبى ؟ كيف يمكن أن يطيق بعد ذلك الحياة ؟ !

كان الحلاق يحكي مأساة انتحار ابن الباشا وكانت صورة الفلاح السعيد بالتمرتين اللتين اكلهما وشرب من الترعة لا تفارق ذهنى ، كانت الموازنة بين هذين الغلامين ولا تزال ماثلة امامى مؤثرة فى حياتى ، بالغة اكبر الاثر في احساسى بالرضا ، وشعورى بالسعادة في كل الظروف ، والا ما استطعت ان اكتب لك هذه الدعوة الى السعادة ، كيف ادعوك الى السعادة وانا غير سعيد ؟ قد خسرت اذن وضللت طريقى ، قد كذبت اذن وخدعت الخولى .

ان المدد الايمانى يجعلك تنظر الى كل مصيبة مهما عظمت على انها كان يمكن أن تكون اعظم واخطر ، فتحمد الله على تخفيفه لها ورحمته بك .

والآن وقد عرفت ان نعم الله كثيرة لا تحصى ، واننا ينبغى ان نتنبه اليها ، والا يكون كل همنا ان نذكر المصائب ، اذا كنت قد عرفت ذلك فاعلم ان كل ما بك من نعمة فهو من عند الله ،

---

(١٢) مائتا جنيه منذ اكثر من اربعين عاما كانت قيمتها الشرائية تزيد عن الفى جنيه فى هذه الايام وكان القاصر لا يزال طالبا في المدرسة الثانوية .

لا من عند نفسك ، لا من مهارتك وذكائك وعلمك ونشاطك ، وهل مهارتك وذكاؤك وعلمك ونشاطك وتوفيقك الا بعض نعم الله عليك ؟ انها أيضا من عند الله .

وهنا تقفز الى الفكر آية كريمة تسيطر على الموقف كله **((وما بكم من نعمة فمن الله))**(١٣) .

وثالثة لابد من التنبيه اليها : فاذا كنت قد عرفت ان نعم الله لا تحصى ، وان كل ما بك من نعمة فهو من عند الله فاعرف أن أجل نعمة وأعظم نعمة أنعمها الله على الانسان هى هدايته الى الاسلام : **((يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين))**(١٤) ولذلك قلنا فى أول المقدمة (الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أسعد خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى اله وصحبه والتابعين ، اللهم اجعلنا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين) فلم يكن عليه الصلاة والسلام أسعد خلق الله الا لانه أعظم خلق الله اسلاما ، لقد كان صاحب النصيب الأوفى من أعظم النعم ، نعمة الاسلام ، ولعلك تعلم ان أحد الكتاب الأمريكيين(١٥) قد اختار من عظماء الدنيا فى الشرق والغرب ، فى القديم والحديث مائة من الأنبياء والعلماء والقادة والمصلحين ، ثم فرضت الحقيقة المضيئة نفسها فكان محمد صلى الله عليه وسلم أعظم هؤلاء العظماء ، لانه كان أعظم خلق الله اسلاما ، فشرح الله له صدره ، فكان أسعد خلق الله ، وكان أعظم خلق الله .

---

(١٣) الآية رقم ٥٣ من سورة النحل

(١٤) الآية رقم ١٧ من سورة الحجرات .

(١٥) هو الكاتب الامريكى وليم هارت .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

اننا فى طريق السعادة نمضى ، ومن خير الى خير ننتقل ، فان نعم الله بالنسبة للمؤمن لا مقطوعة ولا ممنوعة ، انها دائمة لا تنقطع ، وهى متاحة لا تمتنع ، بشرط أن تكون مسلما حقا ، فان العلم نفسه ، وهو الذى يتخذه بعض الملحدين المحدثين آلها من دون الله ، لأنه فى زعمهم يحقق لهم ما تصبو اليه النفوس من متاع ، حتى هذا العلم نفسه مرتبط بالاسلام ، اذا فهمنا الاسلام فهما صحيحا ، واذا استخدمنا العلم استخداما انسانيا ، وارجوك ان تفكر معى فى قول سليمان عليه السلام « **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** »(١٦) فكر فى ارتباط العلم فى أوسع مجالاته بالاسلام فى أوسع معانيه ، فكر وحينئذ سيهتف قلبك قبل أن ينطق لسانك « الحمد لله » فكر وحينئذ سوف تعرف أن الحمد هو روح العبادة ، لأن العبادة تعبير بلغة الخشوع عن شكر الخلق للخالق .

« **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا ماكثين فيه أبدا** »(١٧) .

والحمد هنا على نعمة القرآن ، ومعروف أن القرآن يبدأ بسورة تسمى « الفاتحة » وتسمى سورة « الحمد لله » « أم الكتاب » « وأم القرآن » وأن هذه السورة تبدأ بالحمد ، بعد البسملة مباشرة تبدأ السورة بالحمد « **الحمد لله رب العالمين** » وهو سر من الأسرار العظيمة التى ينبغى أن تتجه اليها تأملاتك ، أن يبدأ القرآن الكريم كله بسورة الحمد لله ، وأن يقرأ كل مسلم

---

(١٦) الآية رقم ٤٢ من سورة النمل .

(١٧) أول سورة الكهف .

وكل مسلمة هـــذه السورة مرات عديدة فى اليوم ، يقرأهـــا فى صلواته كل يوم ، مع كل ركعة ، فلا صـــلاة الا بأم الكتاب ، واياك أن تظن ان الحمد مجرد لفظ يقال باللسان ، انه شعور داخـــلى قبل أن يكون لفظا ، شعور بما أفاض الله من نعم ، شـــعور يتمكن من الانســـان فيخفق منه القلب ، وتغمره الســـعادة ، وينتعش ايمانه ، لينطلق بعد ذلك لسانه (الحمد لله) .

فالحمد اذن مرتبط بالرضـــا ، بل نابع منه ، وقد يوسوس لك شيطانك ، ومن انا حتى أرضى عن ربى ؟ ! ان المفروض أن أطلب رضاه ، فاذا سمعت هـــذا الوسواس فأعلم انه يريد أن يستزلك ، لأن الله لا يرضى عن عبد ساخط على نصيبه ، على قسمه ، على ما أنعم به عليه ، انه سبحانه يريدك أن ترضى ، وهـــذا أيضا من التكريم الذى كرم به بنى آدم ، يغدق عليهم من نعمه ، ثم يطلب رضـــاهم ، فاذا لم يرضوا ، اذا بدلوا نعمـــة الله كفرا ، اذا انقلبت النعم فى أيديهم الى نقم ، فقد جلبوا لأنفسهم الشقاء ، ولقومهم البوار ((**ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار**))(١٨) ومن هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا قارون ، لقد ظن الســـعادة فى موكبه الفاخر وثرائه العريض ((**فخرج على قومه فى زينته**))(١٩)

واغرى الناس بهذا اللون من السعادة الشكلية حتى أخذوا يرددون ((**يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم**))(٢٠) فلما خسف الله به وبداره الأرض ، أفاق هؤلاء الذين تمنوا مكانه بالأمس ، افاقوا من غفلتهم ، وبدأت السنتهم تلهج بالحمد ، تعرفه الحمد على أى شىء ؟ على أن الله من عليهم ، فلم يستجب لرغباتهم

---

(١٨) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة ابراهيم .

(١٩ ، ٢٠) الآية رقم ٧٩ من سورة القصص .

الطائشة ، ولم يجعلهم مثل قارون ((**لولا ان من الله علينا لخسف بنا**))(٢١) اى لاستجاب لنا وجعلنا مثل قارون ثم خسف بنا ((**وى كأنه لا يفلح الكافرون**))(٢٢) .

ان تقديرك للنعمة يملأ قلبك ايمانا ونفسك رضا ، وحياتك سعادة ، فليس هناك طريق أقرب الى رضوان الله من الرضا عن الله .. ثم يرضى الله عنك ، وهل تعرف معنى يرضى الله عنك .. ؟ ان معناها انك وصلت ، الى قمة السعادة وصلت ، لأن الله اذا رضى عن عبد تجاوز عن سيئاته ، بل وصرف عنه السوء ، وضاعف من حسناته . ولأن الله لا يدخل من عباده جنة الدنيا ولا جنة الآخرة الا من رضى عنهم ورضوا عنه ، رضوان الله هو السعادة الكبرى والفوز العظيم ، لأن رضوان الله يفتح لك أبواب الخير جميعا ، فلا يوصد منها فى وجهك باب ، أى باب .

كيف لا ترضى اذن ؟ كيف وأنت تسمع صوت العناية فى غاية الوضوح يناديك ((**ولسوف يعطيك ربك فترضى**))(٢٣) لقد كان هذا النداء لنبيك صلى الله عليه وسلم ، وما دمت قد اتبعته واقتديت به ، فأنت معه ، ومع السعداء ((**ولسوف يعطيك ربك فترضى**)) .

أما الذى يمد عينيه الى ما أنعم الله به على غيره ، فانه يجلب الشقاء لنفسه ، مخالفا بذلك الى ما نهى الله عنه ((**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**))(٢٤) وذلك هو الشقاء الذى لا ينتهى ، لأن نعم الله على خلقه لا تنتهى .

ولنقرأ معى قصة تلك البدوية التى رآها الاصمعى فى

---

(٢١) ، (٢٢) الآية رقم ٨٢ من سورة القصص .

(٢٣) الآية رقم ٥ من سورة الضحى .

احدى جولاته ، وقد كان شغوفا بدراســـة اللغة فى مصـــادرها النقية ، فكان يلقى البدو ، ويتحدث اليهم ، ويحاول دائما أن يسأل ويناقش ، ثم يروى ما رأى من أحداث ، وما صادف من طرائف ، وما سمع من فكر ، وما جمع من لغة ، وقد بهره فى احـــدى جولاته جمال امرأة رائعة الحسن ، كانت كما يقول الشاعر .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرهـــا
حتى يعود اليهـــا الطـــرف مشتاقـــا

وادهش الاصمعى أن يرى زوجها شديد القبح ، ومع ذلك فانها لا تمد عينيها الى غيره ، فانتهز الاصمعى فرصـــة لا يسمعه فيها الزوج وسألها : أترضين لنفسك هذا الزوج ؟ !

فأنكرت أن يســـأل رجل مثل الاصمعى هـــذا السـؤال ، وقالت له : (لقد اسأت بسؤالك) ولكنها مع ذلك اجابتـــه فى ثقة اخجلت ذكاءه (وما يدريك ؟ لعله أحسن فيما بينهوبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أفلا أرضى بما رضيه الله تعالى ؟) .

ولم يستطيع الاصمعى أن يجيب ، فقد ردته البدوية الى المعنى الحقيقى للايمـــان ، فوجد نفسه يقول فى اجـــلال وإكبار « سبحان الله ... هـــذا هو الاسلام » .

---

(٢٤) الآية رقم ٣٢ من سورة النساء .

الفصل الثالث

قرة العين

العبادات فى جوهرها طاعة لله نابعة من حبه ، وفى غايتها تعبير عن شـكره واعتراف بفضله ، وفى حكمتها احيـاء للقلب وتهذيب للنفس وتطهير للروح . وهى بهذا وسيلة من وسـائل الترويح عن النفس واشباع العاطفة ، وباب من ابواب السعادة التى تملأ قلب المؤمن ، حينما يشعر انه على صلة وثيقة بالله ، وانه يسمو ويرتفع حتى يجد سعادته كلها فى رضـوان الله .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قدوة لكل مؤمن ، كان يجد قرة عينه فى الصـلاة ، وكان يقول (ارحنا بها يا بلال) وواجبك نحو نفسك ان ترتقى بها لتجد سعادتها فى هـذه العبادة النبيلة ، وان تحميها من الهبوط الذى يجعلها تتوهم السـعادة فيما حرم الله . ومعروف انه سبحانه لا يحرم على الناس شيئا من الطيبـات ، انه لا يحرم الا الخبـائث ، لا يحرم الا ما يضـر ، لا يحرم الا ما هو رجس من عمل الشيطان ، فاذا رأيت انسانا يرتاح الى الخبائث ، الى احاديث الغيبة والنميمة والدسائس ، ويستمع الى الاكاذيب على انها احـلى نغم ، أو ينضم بنفسه الى قافلة أولئك المفسدين ، فاعـلم انه منحرف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، انه يسعد بأمور لا يرتاح اليها الوجدان السوى ، وينفر منها كل من كان له قلب طبيعى .

انك لن تجد انسانا سـويا يرتاح الى المآثم ، ويسـعد بالتورط فى المحـارم ، فاذا كانت الصـلاة تطهيـرا للنفس والبدن والثوب والمكان ، وترقيـة للمشاعر ، وصلة بالخـالق الرازق الكريم ، فان الزكاة كذلك ، تجعل صاحبها فى غايـة السعادة : انه

سعيد .. فقد مكنه الله أن يعطى ، لقد طهره من الشح والبخل واعطاه ما يسعد به الناس . أى فوز يحظى به المزكى ، وأية سعادة يشعر بها المعطى ؟ ولعل هذه المعانى هى بعض ما كان يحسه ذلك الانسان العظيم(١) الذى كان يهش لمن يأخذ منه الصدقة ، ويفرح به ، ويقول له (أهلا بمن يحمل عنى زادى الى الآخرة) .

ولعلك تحس من كلماته ان صدقته اثمرت فى الدنيا قبل الآخرة ، اثمرت تلك الفرحة التى يشعر بها وهو يقدم صدقته ..

أما الصوم فقد تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين صلته بالسعادة ، فى حديث صحيح صريح يؤكد ان عاقبة الصوم فرحتان ، فرحة فى الدنيا وفرحة فى الآخرة ، وفى نص الحديث ما يوضح أن العبادة باب من أبواب السعادة فى الدنيا قبل الآخرة (للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه) وهذا كله فضلا عما يثمره الصوم من قوة فى العزيمة تجعل الصائم أقوى من كل عوامل الشر ، تجعله ينتصر على كل الشياطين ، وهذا ما نفهمه من واقع ما نراه ، ومن حديث رسول الله عن وضع الشياطين فى رمضان : انها أمام الصائم مكبلة مسلسلة مشلولة مغلولة ، بينما تجدها حرة طليقة ، فعولة مؤثرة فى غير الصائم ، تعبث به .. تغريه بالانصراف عن العبادة وتحبب ، اليه الخبائث .

فكيف نرى هذه الشياطين مشلولة مغلولة بالنسبة للصائمين الصادقين فى عبادتهم . بينما هى طليقة مؤثرة فى غير الصائمين ؟ ان ذلك يؤكد أن الصائمين بصيامهم وصلاتهم ، وعبادتهم وقوة ايمانهم ، تغلبوا على هذه الشياطين .

---

(١) الامام على زين العابدين رضى الله عنه .

واما الحج فهو متعة روحية لا يعرفها الا من ذاقها ، ويروى ان رجلا من الصالحين رآى فتـــاة تلبس ملابس الاحرام تمشى مسرعة فى بغداد ، ولم تكن من أهـــل بغداد فسـألها الشيخ : من أين يا جاريـــه ؟ قـــالت من أصفهان .. من بـــلاد الشرق البعيـــدة .... قـــال لها .. والى أين ؟ قالت الى بيت الله الحـــرام ...

قال الشيخ : أتحجين ماشية ؟ قالت نعم .. قال ان الطريق طويل ، انه بعيد ، قالت ..

بعيد على الكســلان أو ذى ملالة
ولكن عـــلى المشــتاق غير بعيـــد

أفئدة الناس تهوى الى تلك البقاع ، أفئدة المؤمنين والمؤمنات من كل فج عميق . الروح تنتعش فى الطـــواف والســـعى ، فى الوقوف بعرفات ، والافاضـــة الى منى ، ورمى الجمـــار ... ثم طواف الوداع والدعاء ... الدعاء الصاعد من القلوب المؤمنة . ((**انمـــا يتقبل الله من المتقين**))(٢) .

ثم تصـــور تلك المرأة تتعلق بأســـتار الكعبة ، وتدعو فى صدق واخلاص : (يا رب ، بحق حبك لى تقبل منى !) وسمعها رجل لا يدرى معنى الحب ، فقال فى عجب : كيف تدعين حبه لك ؟ من أين عرفت انه يحبك ؟

فقالت له : اليك عنى ، لولا انـــه يحبنى ما دعـــانى الى بيته ، هل تدعو الى بيتك الا من تحب ؟ !

العبادات كلها تفتح أمامك صفحة الكون الفسيح ، لترى من آيات الله ما يملأ القلب نـــورا والنفس حبورا والحيـــاة بهجـــة ،

---

(٢) الآية رقم ٢٧ من سورة المائدة .

ان المؤمن يحس انه منسجم مع الكون بالعبـــادة ، الكون كله يسبح بحمد الله ، فلم يشذ الانسان ؟ لم لا يكون نغما متسقا مع غيره من الانغام فى أفراح الحياة ليسعد .. وينشر السعادة من حـــوله ...

فالعبادات نعمة ، انها تفتح أبواب السعادة ، ســـعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومن حرم نفسه من هـــذه النعمة عرضها للشقاء الطويل ، ثم للانهيار المروع ...

ولا أســتطيع أن أنسى ما حدث للدكتور العميد ، عميد كلية الآداب فى سراييقو عاصمة البوسنة والهرسك اليوغسلافية .. لقد انضــم الى الحزب الشـــيوعى ، وكان يقال انه لولا ذلك لـــا كان عميدا ، ومرضت أمـــه المسلمة .. وكانت وصيتهـــا الوحيدة أن يصلى عليها فى مسجد غازى خسرويك ، ورأيت عددا كبيرا من المسلمين يشيعونها .. ومن بينهم ابنها الدكتور العميد ، وعند باب المسجد رأيته يقف حزينا ، وظننته حزينا لموت أمـــه ، ولكن أصدقائى نبهونى الى شىء آخر .. انه حزين لانه لا يستطيع أن يدخل المسجد ، لا يستطيع أن يشترك فى الصـــلاة على أمـــه ، لا تزال فى نفسه بقية من ايمان ، الايمان كامن فى داخله .. ولكن عضويته فى الحزب الشيوعى تمنعه من دخول المسجد ، ولو دخل لكتب زملاؤه فى الحزب انه غير ملتزم ، ولفقد عضـــويته ... وفقد وظيفته ...

وكاد العميد ينهار .. اعصابه لم تتحمل هـــذا الحرمان .. ماتت أمه فصحا ايمانه ...

وبعد أيام كان العميد المعزول احد رواد المسجد .

أما هذا فقد نجا بنفسه ، وأما ما حدث للواء حسن فكان عكس ذلك تماما .. لقد انهار .. لم يتمكن من التوبة .. كان

اللواء حسن يسكن فى الشارع الذى يسكن فيه الأستاذ بسيم ، أحد العلماء اليوغسلاف الكبار ، وخرج اللواء ذات صباح .. انه بالنسبة له ذات صباح .. انه لا يعنى شيئا ولذلك فهو يخرج الى عمله كعادته كل يوم .. ولكن هذا الصباح بالنسبة للأستاذ بسيم كان يعنى الكثير ، انه صباح يوم العيد ، عيد الأضحى المبارك .. ولذلك نراه عند باب بيته يذبح الأضحية ليأكل مع أهل بيته منها الثلث ، وليوزع الثلث الآخر على الفقراء ، ويهدى الثلث الأخير لأصدقائه واحبابه .. ويرى اللواء هذا المنظر فيزور عنه ، وتعبس أساريره ، وينصرف دون أن يلقى تحية الصباح على جاره ، أو يقول كلمة تهنئة له بالعيد ... وكيف يلقى تحية الصباح أو يقول كلمة تهنئة لهذا الأستاذ الذى لا يزال مستمسكا بتقليده القديم ، رغم علمه الغزير وثقافته الواسعة ؟؟

لقد أسرع اللواء فى خطواته ، ومر غاضبا غاية الغضب ، كأنه رأى من جاره منكرا لا ينبغى التورط فيه ..

ولكن الزمن عامل أساسى فى حياة الناس .. وارجو أن ترقب معى ما أحدثه الزمن بين بسيم وحسن ، فقد مر هذا اللواء بعد سنة كاملة بجاره الأستاذ بسيم وهو يذبح الأضحية من جديد .. فلم يزور عنه ، ولم ترتسم علامات الغضب على وجهه ، ولكنه مع ذلك لم يلق عليه تحية الصباح ، ولم يقل كلمة تهنئة بالعيد ...

وفى العام الثانى مر اللواء بجاره الأستاذ وهو يذبح الأضحية .. فلم يزور عنه ، ولم ينصرف غاضبا ، وانما ابتسم له ، والقى عليه تحية الصباح ، وقال فى صوت هادىء حزين : (بيرم مبارك أولسن) وهى عبارة تركية الأصل ،

يتبادلها المسلمون اليوغسلاف للتهنئة بالعيد ، ومعناها عيد مبارك ، أو عيد سعيد .

وفى العام الثالث يا صديقى .. انهار السيد اللواء ، ودخل على جاره يحتضنه ويبكى ، وينظر اليه نظرة الجانى الى ملاك الرحمة ، يهنئه بالعيد ، وبالشجاعة ، والحرية ، والسعادة التى تغمر حياته ، انه يعبد الله حرا ، ويستقبل العيد سعيدا ، لأنه ليس عضوا فى الحزب .. لأنه رفض الاغلال ، لأنه لم يقبل أن يكون عبدا الا لله ... ونظر الى جاره الأستاذ بسيم ، بعينين ملؤهما الدمع الغزيرة .. ثم سأله : هل أستطيع أن أفعل مثلك ؟ فاشرق الوجه البسيم وقال لجاره الحزين : ولم لا ؟ وارتفع صوت اللواء بالبكاء من جديد ، ونفث نفثة مهموم ، وقال فى حسرة وندم : لا يا أستاذ .. اننى لا استطيع ، لقد وصلت الى رتبة اللواء .. لا أستطيع .. واستمر فى البكاء ، ثم انهار اللواء ...

العبادات نعمة ، فلا تحرم نفسك منها ... ان الله الذى فرض العبادات لم يفرضها لحاجته اليها .. سبحانه هو الغنى ، وأنما فرضها علينا اصلاحا لأنفسنا ليفتح ، بها أبواب الخير فى الدنيا .. وأبواب النعيم فى الآخرة ((**ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين**))(٣) ومما لاشك فيه ان الجهاد هنا يشمل كل انواع الجهاد ، جهاد النفس والشيطان ، وجهاد الكسل والخذلان ، وجهاد كل أعداء الانسان ، لمقاومة الفساد والانحراف ، وللمحافظة على الفطرة السليمة ، وأداء الفرائض ، وسلوك الطريق الصحيح المؤدى لسعادة الدنيا والآخرة ، ولعل هذا هو السر فى ان كثيرا من الآيات الكريمة التى تتضمن الامر

---

(٣) الآية رقم ٦ من سورة العنكبوت .

بالعبادة ، تختم بقوله تعالى ((.. **لعلكم تفلحون**)) والفلاح هو سعادة الدنيا والآخرة ...

ولا اقصد بالعبادات ما فرض منها فحسب ، وانما هناك عبادات اخرى يسميها العلماء بالنوافل ، وهذه ليست لها حدود .. فكلما أحسست بالضيق يحاول الاقتراب منك .. مجرد الاقتراب .. توضأ ، فسوف تساقط الهموم فى قطرات الماء ، ثم قف بين يدى الله ، التجأ اليه ، استغرق فى مناجاته ... تختفى كل الهموم ...

ان الصلاة على شدة الزمان معينة

وكثير من الناس تأتيهم الهموم من باب الفراغ .. انهم لا يجدون ما يفعلونه ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان ، ويجر وراءه كل أسباب الشقاء ....

وفى آذان هؤلاء تهمس كلماتى : هل جربت ان تملأ وقت فراغك بالعبادة ؟ بالقراءة النافعة فى كتب مطهرة ؟ هل جربت ان تشغل نفسك بالحق قبل أن تشغلك بالباطل ؟ املأ فراغها بعمل الخير ، فالمؤمن الحق يسعد سعادة لا حد لها حين يفعل الخير ، وهذا ما يطلق عليه العلماء كلمة « الأريحية » ومن كانت عنده أريحية ، ارتاحت نفسه لعمل الخير ، انه يشعر بالسعادة ، بالنشوة ، بالانتصار ... لأنه تمكن من عمل الخير .

والعبادات كلها مناهج وضعها الحكيم الخبير لتربية النفوس على حب الخير ، وعمل الخير . فمن ادى العبادات اداء صادقا ، صلحت نفسه وصلحت حياته ، واثمرت عباداته حبا للخير وشعورا بالفوز ، وتقلبا دائما فى جوانب النعيم . فاذا نظرت الى كثير من المصلين الذين لا تسعدهم صلاتهم ، ولا يجدون فيها قرة

عين ، والى اخـــوانهم الذين يزكون ولا تطهرهم الزكاة ، والى اضرابهم من الصـــائمين الذين ليس لهم من صيامهم الا الجوع والعطش ، والحجاج الذين يعودون من حجهم وقد زادوا غشا فى التجـــارة ، وفسادا فى الاخلاق ، فأعلم انهم لم يصـــلوا فى الحقيقة ولم يزكوا ، لم يصـــوموا ايمانا واحتسابا ولم يحجوا ، لانهم لم يكونوا صادقين فى عبادتهم ولا محسنين فى ادائهم ، وانت تعرف ما هو الاحسان ، أن تحسن العبادة والعمل (ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه ، فانـــه يراك) ويروى عن أحـــد الســـعداء ، انه أراد أن يختبر وعى أبنائـــه ، ومدى انتفاعهم بما تعلموه .. فأعطى كل واحد منهم سكينا وأعطـــاه طائـــرا يذبحه ، وقال لهم يا أبنائى ، ليذهب كل منكم الى مكان لا يراه فيه أحد ، وليذبح الطائر هنـــاك ، ثم يعود الى ...

وذهب الأبناء ، ومع كل منهم سكين وطائر ، وتفرقوا .. ليبحث كل منهم عن مكان لا يراه فيه احد .. ثم عادوا وقد ذبح كل منهم طائره كمـــا أوصـــاه أبوه ، ولكن واحدا منهم عـــاد ولم يذبح ... وسأله أبوه : لمـــاذا لم تذبح الطائر كما فعل اخوتك ؟ فاعتذر الغلام بأنه لم يجد مكانا لا يراه فيه أحد . فقال له ابوه : وكيف استطاع اخوتك أن يفعلوا ؟ فقال الغلام (لا ادرى ، ولكنى كلما اتجهت الى مكان أرى عين الله ترقبنى) ..

وقبله أبوه لأنه الناجح الوحيد بين اخوته ...

واذا كنا قد فهمنا العبادة على انها ليست مقصـــورة على العبادات المفروضـــة التى تجدها موضحة فى كتب الفقه ، بل على انها تشـــمل العمل ، كل العمل الصالح ، فلنتنبه الى عبادة أخرى لا تذكر فى باب العبادات ، ولكن رسول الله صلى الله عليه

وسلم .. يصف صاحبها بأنه أعبد الناس ، فاستمع اليه يقول فى وضوح شديد « **اتق المحـــارم تكن أعبد الناس** » وطبيعى أنك انكنت تعبد الله كأنك تراه ، فسوف يكون اتقاء المحارم عنصرا اساسيا فى عبادتك ، وبذلك تتجنب كل أســباب الشقاء ، وتصل إلى قمــة السعادة ، سعادة الدنيــا وسعادة الآخرة « **ولمن خــاف مقام ربه جنتــان** »(٤) .

والآن أسألك : ما رأيك فيمن فسر الجنتين فى هــذه الآية الكريمة بأنهما جنـــة الدنيا وجنـــة الآخرة ؟ أما أنا فأقبل هـــذا التفســـير .

فالى جنـــة الدنيا نتبوأ من الأرض حيث نشاء ، وننهل من السعادة أصفاها وأحلاها ثم نلتقى بعد ذلك هناك ان شاء الله .

« **فى جنـــات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** »(٥) .

---

(٤) الاية رقم ٤٦ من سورة الرحمن .

(٥) الآيتان الأخيرتان من سورة القمر .

الفصل الرابع

التيسير

اليسر هو السهولة والسماحة والبعد عن التعقيد واثارة المشكلات ، والله يريد للناس السعادة ويدعوهم الى انتهاج طريقها والابتعاد عن كل ما يؤدى بهم الى الشقاء أو الى تعقيد الامور فى الحياة ((**يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر**))(١) واذا كنت من السعداء وقرأت القرآن الكريم ، فانك ستجد هذا الأمر واضحا غاية الوضوح ، ستجده يدعوك الى السعادة بكل ابعادها ، ويأخذ بيدك بعيدا عن التعاسة والبؤس والشقاء .

((**وما جعل عليكم فى الدين من حرج**))(٢) .

وهو حين يدعونا الى امر ، انما يدعونا باسم الرحمة ، رحمة الله الواسعة ، فلا يكلفنا بما يرهقنا أبدا ((**لايكلف الله نفسا الا وسعها**))(٣) وحتى حين يدعونا الى الخير ، الى التقوى ، فانه يدعونا الى ذلك بقدر الاستطاعه ((**فاتقوا الله ما استطعتم**))(٤) .

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بنفسه فى حياته العملية ، فما خير بين امرين الا اختار ايسرها ما لم يكن

---

(١) الاية رقم ١٨٥ من سورة البقرة .

(٢) الاية رقم ٧٨ من سورة الحج

(٣) الاية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٤) الاية رقم ١٧ من سورة التغابن .

اثما ، فان كان اثما كان ابعد الناس عنه ، وكان يقول لنا وللناس ((خير دينكم ايسره)) ولكل من يحـــاول الغلو فى دينه يقول عليه الصلاة والسلام (ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ، ولا ظهرا ابقى) ومن القصص المعروفة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه عائشة رضى الله عنها تلك الواقعة التى ترويها عائشة بنفسها فتقول :

(سمعت أصوات أناس من الحبشـــة وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال رسول الله لى : اتحبين أن ترى لعبهم ؟ فقلت نعم ، فأرسل اليهم فجاءوا ، وقام بين عضادتى الباب ، فوضـــع كفه على الباب ، ومد يده ، ووضعت ذقنى على يده ، وجعلوا يلعبون وانا انظر ، وأخذ الرسول يقول : حسبك ، فأقـــول : اسكت ، وبعد المرة الثالثة التى قال لى فيها ، حسبك يا عائشة ، قلت نعم ، فأشار اليهم بالانصراف) .

هذا ما قالته عائشة ، أما تعليق رسول الله صلى الله عليه وسلم على هـــذه الواقعة فكان قوله (ليعلم اليهود أن فى ديننـــا فسحة) .

ومن أبرز آيات التيسير فى العبادات قوله صلى الله عليـــه وسلم لمن يؤم الناس فى الصــــلاة :

(اذا أم أحدكم الناس فليخفف ، فان فيهم الصغير والكبير والضعيف وذا الحاجة) .

هـــذا هو الاســـلام فى ســـماحته وبســـاطته تيســـير فى كل امـــر ، وتبشـــير بكل خـــير ، واباحـــة لكل الطيبـــات ، وتحـــذير من كل الخبـــائث ، فالأصـــل فى الأشـــياء الاباحـــة

الا ما ورد نص بتحريمه ، والتحريم لا يكون الا لما يضر ، وتحريمه لصالحك ، فاذا كانت هناك ضرورة قصوى أبيح المحظور ، فالضرورات تبيح المحظورات ، ولكن تقدر الضرورة بقدرها ، أى أن المحظور يباح للضرورة بقدر ما ينقذ الحياة ، ولا تستمر الاباحة وقد انتهت الضرورة ، ومن السهل أن تعرف كل هذا انطلاقا من قاعدة واضحة ، هى أن الهدف هو صالح الانسان وسعادة الانسان ، وليس من صالح الانسان التسيب ، وليس من صالح الانسان التزمت والتشدد ، وسوف تجد فى نهاية هذا الباب فصلا خاصا عن التوازن ، تعرف منه ان الاعتدال هو العدل (فلا تميلوا كل الميل) ولما كان الاسلام دين الفطرة ، فانه لذلك يصور السلوك الخير ، على انه هو السلوك الطبيعى ، هو السلوك الميسر للانسان بطبيعته ، اما السلوك الشرير ، فانه افتعال ، وليس طبيعيا ، ولذلك يسميه اكتسابا ، اى أن الانحراف عن الفطرة يحتاج الى جهد ومشقة ، بينما يسمى فعل الخير كسبا ، لأنه ميسر للانسان بفطرته فيقول سبحانه ((**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**))(٥) ومعروف ان الفعل غير الافتعال الذى يحتاج الى معالجة كما يقول علماء اللغة ، ولما كان الاسلام دين الفطرة كذلك ، فانه يرفع الحرج عن المخطىء ، لأن المشرع الحكيم ، وهو الذى خلق الانسان ويعلم عنه كل شىء ، يريد بالناس اليسر ، ومن اليسر أن ترفع الحرج عن المخطىء ، لأن الخطأ طبيعة البشر (كل بنى آدم خطاء) .

من أجل ذلك ، ومن اجل التيسير على الناس نقرأ فى القرآن الكريم ((**فليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم**))(٦) .

---

(٥) الاية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٦) الاية رقم ٥ من سورة الأحزاب .

ويقول عليه الصلاة والسلام (رفع عن امتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) ولذلك علمنا رب العزة أن ندعو **((ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا))**(٧) .

تيسير فى المعاملات ، وتيسير فى العبادات ، وفوز عظيم ، ورحمة من الله لمن كان سمحا اذا باع ، سمحا اذا اشترى ، سمحا اذا اقتضى ، كل هذا التيسير لسعادة الانسان ، ولابعاد شبح الشقاء بقدر الامكان ، ومما لاشك فيه ، أن اليسر فى الحياة هدف ، وانه رغيبة يحرص الانسان عليها ويرجوها . وفى القرآن الكريم نقرأ دعاء موسى عليه السلام **((رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى))**(٨) والمسلم اذا هم بأمر ذى بال مهد له بطلب التيسير من الله (اللهم انى نويت الحج فيسره لى ، وتقبله منى) .

ومن التيسير المرونة وعدم الجمود ، وهل يمكن لدين الفطرة الا ان يعترف بالتطور ، وينأى عن الجمود ؟ ان هذه هى الفطرة ، حركة دائبة وتطور مستمر ، وتواؤم مع الظروف والملابسات ، واحتفاظ مع ذلك بالاطار العام والقواعد الثابتة ، والنجاح كله فى حفظ التوازن حتى لا يجرفك تيار المرونة والتطور ، ولا يشلك عن الحركة الجمود والتحجر ، ولعل فى تنبيه الرسول الكريم للآباء بأن أولادهم خلقوا لزمان غير زمانهم ، ما يوضح هذه المرونة ، وذلك الى جانب قوله صلى الله عليه وسلم (الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم) .

---

(٧) الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة

(٨) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة طة

ولا اظننى فى حاجة الى الاسهاب فى بيان يسر الاســـلام ، فقد اصبحت كلمة (الدين يسر) من اكثر الكلمات انتشارا بين المسلمين وترددا على السنتهم ، ولكن ماذا تعنى هـــذه الكلمة ؟ وما مصدر هـــذا اليسر ؟

انك لو قرات القرآن كله ، لخرجت بانطباع يؤكد لك يسر الدين ، انك سوف تلاحظ بلا شك ان الوصـــول الى ســـعادة الدنيا والآخرة ليس صعبا ، انه لا يحتـــاج منك الا الى امرين اثنين لا ثالث لهما ، انك لكى تصـــل الى اعلى درجات الجنة ، الى الفردوس الأعلى ، الى غاية القرب من الله ، ليس مطلوبا منك الا ان تؤمن بالله ، وتعمل طبقا لهذا الايمان ــ امران اثنان لا ثالث لهما ، الايمان والعمل الصالح .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات ، كانت لهم جنـــات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا »(٩) .

ولذلك نرى الامام الشافعى رضى الله عنه يقول (لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم) وسور العصر من اقصر ســـور القرآن الكريم ، ولكنهـــا تتحدث عن سفينة النجـــاة ، نجـــاة الانســـان من كل المهـــالك ، من كل الموبقات ، من كل اســـباب الخسر والشقاء ، وعن فوز الانسان بالسعادة فى الدارين ، وتؤكد بكل وسائل التأكيد انه لا نجاة للانسان من كل الشرور ، ولا وسيلة الى الفوز بكل الخـــيرات ، الا الايمـــان والعمـــل الصــــالح **« والعصر ، إن الانســـان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعمـــلوا الصالحات ، وتواصـــاو بالحق وتواصـــلوا بالصبر »** انهما كما

---

(٩) الآيتان رقم ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف .

ترى امران اساسيان ، الايمان والعمل الصالح ، اما التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فهو نموذج من الصالحات ، نموذج يلتقى مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهل يصلح المجتمع وينمو فيه الخير ، ويرضى عنه رب العزة والجلال الا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ ولذلك كان التواصى بالحق والتواصى بالصبر من اهم النماذج التى وضحتها السورة من بين الصالحات ، من اجل ذلك كنت أكتب كثيرا عن سورة العصر ، ومن بين ما كتبت ذلك البيت من الشعر الذى جعلته شعارا لجمعية اسلامية مركزية أتشرف برئاستها(١٠) .

وسورة العصر دستور لمجلسنا
فى ظل آياتها بالحق نجتمع(١١)

فاليسر هو السمة الواضحة للاسلام .. واليسر هو الطريق الطبيعى للسعادة ، وليس معنى ذلك انك لا تقدم الا على السهل من الأمور واليسير منها وانما انت تقتحم الصعاب فاذا هى ميسرة فى يديك ، لأن الله ييسر لك ((**ان ذلك على الله يسير**))(١٢) .

ويقول الشاعر المؤمن :

الا بالصبر تبلغ ما تريد
وبالتقوى يلين لك الحديد

---

(١٠) جمعية «كل مسلم» ، التى تدعو العالم الاسلامى الى التقارب والوحدة .

(١١) اى فى ظل التواصى بالحق والتواصى بالصبر نجتمع .

(١٢) الآية رقم ٧٠ من سورة الحج .

ويقول الحق جل جـــلاله : « **ومن يتق الله يجعـــل له من امره يسرا** »(١٣) .

التيسير اذن هو طابع الاســـلام .. وهو اسلوب المؤمنين الصادقين .. وهو فى الوقت نفسه من أهم وسائل السعادة ، سواء فى المعاملات أو فى العبادة .

من اجل ذلك وجهنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوجيه الرشـــيد ، ووضـــع اقدامنا على هذا الطريق السعيد (يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا) .

ربنـــا اننا ســـمعنا توجيـــه نبيك ، فانطلقنـــا ميسرين ما استطعنا ، مبشرين بسعادة الدارين لمن اتبع هداك ، سبحانك انت القـــائل وقولك الحـــق « **فمن اتبـــع هـــداى فلا يضـــل ولا يشـــقى** »(١٤) .

---

(١٣) الاية رقم ٤ من سورة الطلاق .

(١٤) الاية رقم ١٢٣ من سورة طه .

الفصـــل الخـــامس

النفســ المطمئنــة

النفس المطمئنة راضـــية مرضـية ، من اجـل ذلك فهى سعيدة ، والمطمئن من الأرض ما كان مســـتويا لا وعورة فيه ، لا تنتشر فى أنحـــائه المراقيل ، ولا تطل من جوانبـــه المخاوف . وتوصف القرية بانها آمنة مطمئنة حينما ياتيها رزقهـــا رغدا من كل مكان ، ولا تهددها الأخطـــار من اى مكان ، لأن الله يرعاها وترعاه ، فاذا كفرت بأنعم الله اذاقها لباس الجـــوع والخوف ، لانها القت بقيادها فى يد عدوها ، فى يد الشيطان **((ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا))**(١) .

والا فكيف يطمئن من اسلم زمام أمره لعدوه ، يقوده الى ما يشاء من أبواب التعاسة والشقاء ، الى المهالك ؟ !

ولو تصورنا بشاعة هـــذه المسالك ، ونهاية هذه المهالك ، ثم سمعنا أثناء ذلك النداء الحلو الحنون ، نداء الرحمة الى النفوس المطمئنة يبشرها بالنجـــاة ، لعرفنا ضخامة الفرق بين ما يلقاه أولياء الشيطان من هول ، وما تلقاه النفوس المطمئنة من اعزاز وتكريم ، ومن المؤكد انك تتصـــور ذلك حينمـــا تسمع هـــذا الصوت المجلجل **((كلا ، اذا دكت الأرض دكا دكا ، وجـــاء ربك والملك صفا صفا ، وجيىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الانســـان وانى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحيـــاتى ، فيومئذ لا يعذب**

---

(١) الاية رقم ٦ من سورة فاطر .

عذابه احد ، ولا يوثق وثاقه احد »(٢) ووسط هـــذه الاهوال التى يلقاها أولئك الذين لا يكرمون اليتيم ، ولا يحاضون على طعـــام المسكين ويأكلون التراث اكلا لمــا ، ويحبون المـــال حبا جما .. وسط هـــذه الاهوال المروعة ، يأتى نداء رحيم للنفس المطمئنة **« يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضـــية مرضـــية ، فادخـــلى فى عبادى وادخـــلى جنتى »**(٣) ولكن هـــذه الصورة سوف تكون فى الآخرة ، اما فى الدنيـــا فارجو الا يطوف بذهنـــك خـــاطر من الخـــواطر المضـــللة . ارجو الا تربط بأى شـــكل بين اطمئنـــان النفس ، وفـــراغ النفس ، بين الطمأنيـــنة والكســـل ، ان العكس هـــو الصحيح ، فـــان الاحســـاس بالفراغ أدعى الى اليـــأس والاحبـــاط والقـــلق ، اما أصحـــاب الرسالات الكبيرة والأهداف العظيمـــة ، فلن يكون عندهم وقت للقلق والوساوس وسيطرة الهموم والأفكار الخبيثة ، ان الانسان الواثق بالله .. المطمئن الى عدله ، المخلص له ، يتقلب فى السعادة بايمانه . أن اطمئنانه يأتى من ذلك النبع الفيـــاض بالخير ، من الايمان ، من ايمانه بالله خـــالق الكون ومالكه ، والمسيطر عليـــه بقوته ، والمتصرف فيه بحكمته ، انه واثق من عدل الله ، راض بقضائه ، وسعيد بهذا الرضـــا . ولهذا الايمان ثماره الحلوة التى تؤكد الاطمئنان وتهدىء الروع .

واول هـــذه الثمار التوكل :

ان ايمـــانك بأن الـــرزق من عند الله يجعـــلك تتوكـــل عليـــه حق التوكل ، تســـعى وتعمـــل مطمئنا الى النتيجـــة ، انهـــا ســـتكون فى النهـــاية كمـــا يريدهـــا الله ، وســـــوف

---

(٢) الآيات من ٢١ الى ٢٦ من سورة الفجر .

(٣) الآيات من ٢٧ الى اخر سورة الفجر .

يرزقك بلا شك ، ولكن (كما يرزق الطير تغدو خماصــا وتروح شباعا) ولا تقضى ليلها ونهارها فى العش نائمة ، وانما تسعى وتسعى ، تغدو وتروح ، وأنت تسعى وتسعد ، تغدو وتروح ولكنك مطمئن ، لانك تعلم ان ما كان لك ســوف يأتيك ، فلا تحزن حتى يقتلك الحزن على شىء فاتك ، ولا تفرح حتى يطفيك الفرح برزق اتاك ، وانما انت فى الحالين واثق فى ربك .. سعيد بجدك وسعيك ، فالتوكل فى حقيقتــه هو اطمئنان القلب بوعد الله ، بعدل الله .

وثانيها : الرزق الحـــلال :

ان المؤمن لا يسعى الى الرزق من اى طريق ، ولا يقبل منه الا ما كان حــلالا ، ومما لاشك فيه أن ذلك من اهم عوامــل الاطمئنان ، وحق لمن ياكل حلالا ويشرب حلالا ويبتعد كل البعد عن الحرام ، ان يطمئن ، وحق لمن ياكل حراما ويشرب حراما او يخلط بين الحــلال والحرام ، أن يعيش مفزعا لا يهدأ ، قلقا لا يطمئن ، ولنضرب هنا مثلا بالقط يحوم حول المــائدة ، فان القيت اليه بشىء من طعامك تناوله مطمئنا لا يفزع ولا يهرب ، وانما ياكل فى هدوء ،ويموء فى امتنان . وان خطف شــيئا دون رضـــاك اسرع بالهرب واكله بعيدا عنك ، خائفا منك ..

ولا تعجب ان ترانا نتحدث عن الانســان ونضرب مثــلا بالقط ، ولا تكن كأولئك الذين استنكروا أن يضرب الله مثلا للذين اتخذوا اولياء من دونه « **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** »(٤) كما استنكروا ضرب المثل بالذباب فى قوله تعـــالى « **يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا**

---

(٤) الآية رقم ٤٠ من سورة العنكبوت .

له .. **ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب**))(٥) ولم يكونوا صادقين فى استنكارهم لضرب المثل بالعنكبوت والذباب ولذلك جاءتهم الاجابة المفحمة ((**ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ، واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين**))(٦) انك تعرف بلاشك ان الغرض من ضرب هذه الأمثال هو التوضيح ، هو أعطاء صورة محسوسة لأمور معنوية غير محسوسة ، وليس مهما بعد ذلك ان يضرب المثل بالعنكبوت او الذباب أو الكلب أو الحمار ، ولعلك تعرف ان الله قد ضرب مثلا للذى اعرض عن آياته وانسلخ منها ، واخلد الى الأرض ، واصبح ميئوسا من استجابته للدعوة ، ضرب مثلا له بالكلب ((**ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**))(٧) وضرب مثلا للذين حملوا التوراة ثم لم يعملوا بما فيها من هدى ونور بالحمار يحمل الكتب ولا يدرك قيمتها ((**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين**))(٨) .

وثالثها : قوة الشخصية :

فالمؤمن الحق لا يتزعزع ايمانه ولا يهتز يقينه مهما تألب عليه الباطل واهل الباطل ، ان ثقته فى الله لا حد لها ،

---

(٥) الآية رقم ٧٢ من سورة الحج .

(٦) الآية رقم ٢٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٨) الآية رقم ٤ من سورة الجمعة .

ومما لاشــك فيه اننا نتحدث عن الايمان الصــادق الذى لا تزيده الأحداث الا قوة ، اما ضعيف الايمــان ومن يعبد الله على حرف **« فان اصابه خيرا اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيــا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين »**(٩) فواضح ان هــذا لا ينتفع بايمانه المزعزع ، ولا يطمئن الا فى الرضــاء ، انه اطمئنان مؤقت ، اطمئنان يستند الى الظروف المطمئنــة ، ولا يستند الى الايمــان الثابت ، ولذلك فهو اطمئنان قــلق : اما المؤمن الحق فيعرف انه قد يلقى العنت بعد لحظة ، وقد يتنكر له اقرب الناس اليه ، ولكنه مع ذلك مطمئن ، مطمئن بالله ...

وقد يغضب عليه بعض الناس ، ولكنه واثق الخطا فى طريقه الصحيح ، يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، وما عليــه بعد ذلك الا يرضى عنه المنحرفون ..

وما ضر الــورود ومــا عليهــا
اذا المزكــوم لم يطعــم شــذاها

وهو يعلم انه معرض للموت فى اية لحظة .. انه فى الليل غير واثق من ان يطلع عليه النهار ، وهو فى النهار غير متأكد أن الليل سوف يجده على قيد الحياة ، ولكن لا بأس ، ان ثقته ليست فى الزمان او المكان ، ان ثقته فى خالق الزمان والمكان ، انه مطمئن بالله ، واثق أن الموت ســوف يأتى لا محالة ، ان عاجلا او آجلا ، وليس المهم عنده كم عــاش من السنين ، ولكن المهم كيف عاش ما عاش ، ان يقينه بالله يقيه من الاضطراب والخــوف والقلق ، وأظنك رأيت كثيرا من العاملين فى مكاتبهم يضع الواحد منهم أمامه لوحة كتب عليها بخط جميل (يقينى بالله يقينى) انه يقصــد أن

---

(٩) الآية رقم ١٠ من سورة الحج .

ثقته بالله تقيه من كل الشرور ، من الاضطراب والخوف والقلق والانحراف ، ومنك ان كنت تريد ان تخدعه او تحتال عليه ، انه يريد ان يقول انه قــوى بالله ((**ومن يعتصم بالله فقد هــدى الى صراط مستقيم**))(١٠) هل تظن ان يوســف عليــه الســلام كان مضطربا فى السجن ؟ انه كان مطمئنا فى سجنه ، لأن السجن كما قال هو نفسه ، كان احب اليه مما يدعونه اليه ، ولو كان قلقــا مضطربا لأسرع الى مغادرة السجن حينما دعاه الملك ، ولكنه لم يكن فى عجلة من امره .. وانما تريث وقــال للذى حمل اليه دعوة الملك ((**ارجــع الى ربك فاسـأله ما بال النســوة اللاتى قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم**))(١١) انه لا يريد ان يخرج من السجن بأى وجه من الوجوه ، لابد من اثبات براءته أولا ..

وهل تظن ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان مذعورا فى غار ثور ؟ او فى طريق هجرته من مكة الى المدينــة ؟ او فى أيه غزوة من الغزوات ؟ مستحيــل . لقد كان مطمئنــا بالله ، بل أن اصحابه أيضــا كانوا مطمئنين ، انهم يؤدون واجبهم ، وســواء اكانت النتيجة النصر او كانت الشــهادة ، فانها احدى الحسنيين على أى حال ، بل انى لا اخفى عليك امرا تعجب له ..

لقد ذكرت لك فى مقدمة الكتاب انى احيا ســعيدا باسلامى ، واستمع الى دقات قلبى تلهج بالحمد ليل نهار ، والى بلابل روحى تصدح بالايمان فى اليقظة والمنام ، وانى اشعر بفيض من الرضــا يغمر حيــاتى بالســعادة ، ودافق من السرور يملأ صــدرى بالانشراح ، ويطلق لسانى بالحمد ..

---

(١٠) الاية رقم ١٠١ من سورة ال عمران .

(١١) الاية رقم ٥٠ من سورة يوسف .

وحدثت بعد ذلك احداث جسام .. منها ما يتصل بشخصى ، ومنها ما يتصل بأمور العالم الاسلامى ، فهل تظن أن شيئا من ذلك غير قليلا أو كثيرا من تلك المعانى ؟ ابدا .. لقد كانت سعادتى التى أحكمت ضدى ... لا تقل خردلة عن سعادتى فى اثناء المؤامرة حفل يقام تكريما لى ، كنت واثقا من نفسى ، مطمئنا الى عدل الله ، مؤمنا بأن هذه الأحداث تكفير للذنوب ، أو رفع للدرجة ، أو صهر للتجارب ... انها خير على كل حال ..

وكنت كلما هم الشيطان أن يغزو نفسى عن طريق التفكير فى أولادى وما يمكن ان يلقوه بسببى ، اتجهت الى الله اسأله الا يجعلنى سببا فى ايذاء احد .. وكانت دعواتى مركزة فى هذا الدعاء (اللهم اجعلنى مفتاحا للخير مغلاقا للشر) .

وارجو أن تكون من المؤمنين بالدعاء ، وأهمية الدعاء ...

واذا قرأت قوله تعالى ((**إن الانسان خلق هلوعا .. ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ..**))(١٢) عرفت ان العبادة اقوى سبب فى ابعاد الهلع والجزع عن العابدين . فهل تعرف كيف كانت نظرتى الى كل هذه الأحداث ؟ كنت انظر اليها على انها تحديات تريدنى أن اتراجع عن تلك العقيدة الثابتة فى نفسى ، وهى ان السعادة تنبع من القلب المؤمن لا من الظروف المحيطة ، ولم تستطع تلك التحديات أن تزعزع ايمانى بالفكرة ، وكان يحلو لبعض الأصدقاء أن يسخر .. وقد يسأل فى عجب .. عن اية سعادة تكتب ؟ أين هى السعادة فيما حولك ؟ انظر حولك فلن تجد الا ما يدعو الى الألم ، ويثير الاحزان والمخاوف ، وفى قوله

(١٢) الآيات من ١٩ الى ٢٢ من سورة المعارج

صدق ، وفى وصفه للأحداث تصـوير حقيقى ، ولكنى مع ذلك اقول له : انك اذا امتلأت رعبا نقد يشل الرعب حركتك ، ولعلك تعرف قول الرســـول صلى الله عليه وسلم (ونصرت بالرعب) اى ان الكفار كانوا يصابون بالرعب ، فتحل بهم الهزيمـــة ، وهو امر تؤكده الآيـــة الكريمة ((**اذ يوحى ربك الى الملائـــكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب**))(١٣)

وقد كان الايمان هو العـــامل الرئيسى فى ثبات المؤمنين ، كما كان الكفر هو العامل الرئيسى فى رعب الكافرين .

انى اريد المؤمن ان يواجـــه المشـــكلات رابط الجـــأش ، مطمئن النفس ، ثابت الايمان قوى الشخصية ، وبذلك يتغلب على كل المشكلات .

ويأتى سؤال فى غاية الاهمية : هل يمكن أن يكون المؤمن ضعيف الشخصية ؟ ان ايمانه ينهاه ، يحذره ، يمنعه من ضعف الشخصية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشـــدد النكير ، ويؤكد التحذير (لا يكن احدكم امعه ، يقول انا مع الناس ، ان أحسن الناس أحسنت وان اساءوا اسأت ، ولكن ليوطن كل منكم نفسه ، ان أحسن النـــاس ان يحسن ، وان اساءوا أن يتجنب اســـاءتهم) .

ان قوة الشخصية تتناسب تناسبا طرديا مع زيادة الايمان ، والمؤمنون والمؤمنات فى ذلك درجـــات ، حسب نصيب كل منهم من قوة الايمان .

---

(١٣) الآية رقم ١٢ من سورة الانفال .

ورابعها القوة بالله : ان اطمئنان القلب مطلب قديم نبهنا اليه القرآن الكريم فيما حكاه عن ابى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ((**واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى**))(١٤) لقد لجأ ابراهيم الى ربه يطلب الاطمئنان ، وقد اطمأن قلبه فعلا لعلم الله وقدرة الله .. ولعلنا لا ننسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لصحابى جاء يسأله (جئت تسأل عن البر والاثم ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى القلب ، ولم تطمئن اليه النفس) .

ولعلك فى نهاية هذا الفصل تريد أن تعرف كيف تطمئن القلوب بذكر الله ؟

انك ما دمت مع الله ، تذكره ولا تنساه ، فانك لابد أن تذكر قدرته ، وهى قدرة رحيمة ترعاك ولا تنساك .. وحينئذ لا تحس بالضعف ، لأنك مع الله ، وهو أقوى الأقوياء .. ان لك ناصرا قويا قادرا فاطمئن ، انه سبحانك وليك ((**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات**))(١٥) ولابد أن تذكر عدله ، وحينئذ لا تخشى الظلم ، لا تخشى ان يظلمك الله ، حاشا لله ، ولا تخشى أن يدعك نهبة للظالمين ، انك مطمئن الى عدله ، والى نصره للمؤمنين ((**ولا يظلم ربك احدا**)) وكيف يظلم سبحانه ، وقد تكرم فحرم الظلم على نفسه وجعله بيننا حراما ، وأوصانا الا نتظالم ، وكيف تخشى ان يدعك للظالمين وهو القائل وقوله الحق ((**انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم**

---

(١٤) الآية رقم ٢٦٠ من سورة البقرة .

(١٥) الآية رقم ٢٥٧ من سورة البقرة .

الاشــــهاد »(١٦) وكل مسلم يحفظ قوله تعالى « **ولينصرن الله من ينصره ، أن الله لقوى عزيز** »(١٧) .

اخى المســـلم :

انك قوى بالله ، معتصـــــم بالله ، ذاكر لله ، فانت منهم ، من « الذين آمنوا وتطمئن **قلوبهم بذكـــر الله ، ألا بذكـــر الله تطمئن القــلوب** »(١٨) .

---

(١٦) الآية رقم ٥١ من سورة غافر .

(١٧) الآية رقم ٤٠ من سورة الحج .

(١٨) الآية رقم ٢٨ من سورة الرعد .

الفصـــل الســادس

يفــرح المؤمنــون

ومن احق بالفرح والسعادة من المؤمنين ؟

لقد فازوا بأعظم نعمة ، واختاروا أحسن طريق ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولو اننا احصينا الآيات التى تنهى المؤمنين عن الحزن ، وتنهى عنه أول المسلمين محمدا صلى الله عليه وسلم ، لوجدنا منها عددا كبيرا(١) ثم وجدنا عددا آخر من الآيات ، تنفى الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى الدنيا والآخرة(٢) وتؤكد أن غير المؤمنين احق بالحزن والهم والغم والحسرات ، ولكن الشــيطان يريد للذين آمنوا ان يحزنوا ، فهل نمكنه من أغراضـــه الخبيثة ؟

اننا نقرأ ذلك صريحا فى سورة المجادلة ((**انمـا النجوى من الشــيطان ليحزن الذين آمنوا**))(٣) ذلك هو الهدف الخبيث لهذا العدو المبين .

ولكن القرآن الكريم يتنزل على قلب محمد صلى الله عليــه وســلم ويحذره من الحزن ، ويبين له لمــاذا لا ينبغى أن يحزن ((**يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا آمنا بافواههم ، ولم تؤمن من قلوبهم ، ومن الذين هادوا**

---

(١) ورد النهى عن الحزن خمس عشــرة مرة فى القرآن الكريم .

(٢) ورد نفى الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة .

(٣) الآية رقم ١٠ من سورة المجادلة .

سماعون للكذب ، سـماعون لقوم آخرين لم ياتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان اوتيتم هـذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحـذروا ، ومن يرد الله فتنتـه فلن تملك له من الله شيئا ، اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم))(٤) .

ارايت ؟ ارايت من أحق بالحزن والغم والهم والحسرات فى الدنيـا والآخرة ((**أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قـلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**)) .

ولمـاذا يحزن عليه الصلاة والسلام لمسارعتهم فى الكفر : بينما لا يحزنون على انفسـهم ؟ ! هل يمكن لكفرهم أن يضر الله شيئا ؟ ((**ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله الا يجعل لهم حظـا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيـم**))(٥) .

ولمـاذا يحزن عليهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم انه لا يملك لهم من الله شيئا ، كما يعلم انهم لن يضروا الله شـيئا ؟ .

نعم ، ولكنهم يتحدثون عنه ويتقولون عليه ، يتحدثون عن الاسلام بمفتريات غريبة ، ويكيدون له ، ويدعون ادعاءات باطلة ، ولكن هذا أيضـا ليس مبررا للحزن ، فما دمت على الحق ، ما دمت مع الله فانت اقوى واعز ، وانت اولى بالسعادة والسرور ،

---

(٤) الآية رقم ٤١ من سورة المائدة .

(٥) الآية رقم ١٧٦ من سورة ال عمران .

لا بالحزن والاكتئاب ((ولا يحزنك قولهم ، ان العزة لله جميعا ، هو السميع العليم))(٦) .

ثم ان الصبر يتنافى مع الحزن ، ولذلك نقرا فى نهاية سورة النحل ((واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون))(٧) .

وكما نهى الله نبيه عن الحزن ، نرى النبى صلى الله عليه وسلم بدوره ينهى صاحبه فى الغار عن الحزن ، و برر ذلك تبريرا منطقيا تماما ((اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا))(٨) ومن كان الله معه فمن عليه ؟ !

ولما كان الاسلام حريصا على ابعاد الاحزان واسبابها عن المؤمنين والمؤمنات ، ولما كان أول من ينبغى تطبيق هذه النظرية عليه هو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، على اعتبار انه القدوة ، فقد ارشد الله نبيه الى الطريقة المثلى لمعاملة أزواجه ، لادخال السرور عليهن ، وابعاد شبح الحزن عنهن ((ذلك ادنى ان تقر اعينهن ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليما حليما))(٩) .

سنة الله فى خلقه ان يسعد المؤمنون والمؤمنات ، وأن يشقى الكافرون والكافرات .. منذ اول الخليفة كانت هذه السنة ، وكان ذلك النداء الآلهى ((قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما ياتينكم منى

---

(٦) الاية رقم ٦٥ من سورة يونس .

(٧) الايتان رقم ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .

(٨) الاية رقم ٤٠ من سورة التوبة .

(٩) الاية رقم ٥١ من سورة الأحزاب .

هـــدى ، فمن اتبع هداى فلا خـــوف عليهم ولا هم يحـــزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنـــا اولئك اصحاب النار هم فيهـــا خـــالدون))(١٠) .

واذا اردت ان تستمع الى هـــذا النداء الآتى فى ايـــات أخرى لتعرف ان سعادة المؤمنين ليست فى الاخرة وحدها ، وان شقاء الكافرين كذلك ، فاقرأ ما قاله سبحانـــه فى ســـوره طه ((قـــال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينـــكم منى هدى فمن اتبع هـــداى فلا يضـــل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك اياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجـــزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى))(١١) .

ولا يتسع هـــذا الكتاب ليجوس بك خـــلال هـــذا التاريخ الطويل منذ آدم حتى الآن ، ليتأكد لديك انها سنة ثابتة ، ولكنه يكتفى بأن يذكرك بما قالته الملائكة فى سدوم ، وما حدث لأم موسى فى مصر ، وأم عيسى فى بيت لحم ، انه ليس كتابا فى تاريخ الأديان ليستوعب التـــاريخ الايمـــانى كله ، ويتتبع مســـيرة الايمـــان والسعادة ، ومسيرة الكفر والشقاء منذ فجر التاريخ الى يومنـــا هذا ، ولذلك نكتفى بهذه الأمثلة :

اما فى سدوم فنقرأ معا قول الحق جل جلاله ((ولمـــا ان جاءت رسلنا لوطاسىء بهم وضـــاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك واهلك الا امرأتك كانت من الغـــابرين

---

(١٠) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة البقرة .

(١١) الايات من ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه .

انا منزلون على اهل هـــذه القرية رجزا من السـماء بما كانوا يفسقون))(١٢) .

واما فى مصر فقد رجـع الرضيع الى امه ((**كى تقر عينها ولا تحزن))**(١٣) الارادة الآلهية بسـعادة المؤمنين والمؤمنـات لا تتخلف ، سنه ازلية ابدية أن تقر عيونهم وان يبتعد شبح الاحزان منهم ، فهذا موسى طفلا رضيعا فى مصر ، ويأتى الى امه امر من السماء ان تلقيه فى اليم ، تلقى بفلذة كبدها فى اليم بنفسـها . ويشترط عليهـا مع ذلك الا تخـاف ولا تحزن ((**فالقيه فى اليم ولا تخـافى ولا تحزنى))**(١٤) وبعد أن التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، تطرد السـنة الآلهية ((**فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم ان وعد الله حـق ، ولكن اكثرهم لا يعلمون))**(١٥) .

وتحت النخلة فى بيت لحم ، يتحدث عيسى فى المهد ، وكانت اول كلماته نداء لأمه الا تحزن وان تقر عينها ((**فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا))**(١٦) .

ثم يأتى هـذا النهى الحـازم الحاسم للمؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها ((**ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعـلون ان كنتم مؤمنين))**(١٧) .

---

(١٢) الايتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .

(١٣) الاية رقم ٤٠ من سورة طه .

(١٤) الاية رقم ٧ من سورة القصص .

(١٥) الاية رقم ١٣ من سورة القصص .

(١٦) الآيات من ٢٤ الى ٢٦ من سورة مريم .

(١٧) الاية ١٣٩ من سورة آل عمران .

وتضيف آيات اخرى الى النهى عن الخوف والحزن تبشيرا بالجنة فى الآخرة ، وهـذا النهى والتبشير ، تتنزل بهما الملائكة ، تتنزل على الناس ، الملائكة تتنزل عليهم بالطمأنينة والسعادة والبشريات ((**ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ، ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا ، وقال اننى من المسلمين**))(١٨) .

ومما لاشك فيه ان ابعاد شبح الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى الدنيا هو الخطوة الأولى للسعادة ، فانك لكى تبذر السعادة فى قلب انسان لابد أن تبدأ بتطهير الأرض ، واعداد المكان ، لابد من التخلية قبل التحلية ، ولعل هـذا هو السر فى انك اذا قرأت القرآن تبدأ اولا بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، تبدأ بالتطهير قبل التعمير ، تطهر قلبك من الشيطان قبل ان تعمره بالقرآن ، ولذلك فقد بدأنا هـذا الفصل المخصص للفرح ، بابعاد المخاوف والأحزان ، بطرد الهمم والغم والنكد والحسرات ، فهذه الطائفة من الأمراض النفسية ، من امضى الأسلحة لقتل الناس ، او على الاقل لتعاستهم وتقويض حياتهم المعنوية ، وفى الاسلام قاعدة اصولية تقول (دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة) وان كانت السعادة فى الحقيقة لا تخضع لهذا التقسيم بين دفع الأحزان وجلب المسرات ، فان دفع الأحزان فى ذاته جاب للمسرة ((**فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز**))(١٩) ان مجرد

---

(١٨) الآيات من ٣٠ الى ٣٣ من سورة فصلت .

(١٩) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

نجاتك من العذاب فوز عظيم ، ولكن الله أكرم بعباده السعداء ، انه ينجيهم من العذاب وبدخلهم جنة النعيم ، هــذا فى الآخرة ، اما فى الدنيا فانهم يسمعون هــذه الكلمات ، ويسعدون بهــذه الآيات : ((**الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم**))(٢٠) .

ان الانسان يكون جديرا بالحزن اذا كان مقصرا أو مخالفا ، وهؤلاء لم يقصروا ولم يخالفوا ، من أجل ذلك لا خـوف عليهم ولا هم يحزنون ، بل أن الفرح يملأ قلوبهم فى الدنيا بعد تطهيرها من الأحزان وأسبابها ، كما يملأ قلوبهم فى الآخرة بما وجدوا من ثواب عظيم ونعيم مقيم .

ولكن بماذا يفرح المؤمنون فى الدنيـا ؟ بالعرض الزائل ؟ بالمظاهر المضللة ؟ كلا ، لقد انحرفوا عن الايمان اذن ، انما يفرح المؤمنون بالجوهر لا بالعرض ((**قل بفضـــل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**))(٢١) ان هذه الآية الكريمة تحدد الأسباب الجوهرية للفرح الحقيقى ، الفرح الذى ينبغى للمؤمن .. ولكنى مع ذلك ارى فيها (لام الأمر) هذه فى غاية الأهميـــة ، ان الله يأمر المؤمنين بالفرح ، على عكس ما يحـــاول اصحاب المناظير السوداء ان يصوروا الاسلام .. كما ان آية أخرى فى سورة الروم تذكر سببا آخر للفرح ، هو النصر ((**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**))(٢٢).

---

(٢٠) الآيات من ٦٢ الى ٦٤ من سورة يونس .

(٢١) الآية ٥٨ من سورة يونس .

(٢٢) الآية رقم ٤ من سورة الروم .

ومن هاتين الآيتين ، ومن قوله صلى الله عليه وسلم (للصائم فرحتان) تظهر لنا مشروعية الفرح ، كما تتضح الأمور التى يفرح بها المؤمنون ، فى سورة يونس يفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته ، وفضل الله على المؤمنين عظيم ، ورحمته بهم لا حد لها ، وان كان القرآن الكريم هو ينبوع الفضل ومعين الرحمة **((يايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون))(٢٣)** .

وفى سورة الروم يفرحون بنصر الله ، بتحقيق آمالهم الانسانية .

وفى الحديث الشريف (للصائم فرحتان ..) يفرحون بتوفيق الله لهم ، وتمكينهم من عبادته والتقرب اليه ، واداء ما فرضه عليهم .

فاذا عرفنا هذه النماذج من أسباب الفرح عند المؤمنين ، فلابد أن نسعى لتحصيلها وتوفيرها ، وان نسعد بها .

ان المنحرفين يفرحون بما يصور لهم الشيطان من أسباب خادعة ، ويجتهدون فى اغراء الناس بها ، كما فعل جندى من جنود الشيطان(٢٤) ، يعاقر الخمر ، ويتغنى بالسعادة التى تسببها له ، ويرد على من يلومه :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء
وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء

---

(٢٣) **الايتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة يونس** .

(٢٤) الشاعر المعروف أبو نواس يصف اثر الخمر فى نفسه .

انه يحـــاول اغراء الناس بالخمر ، ويزعم ان الحجر نفسه او مسته الخمر ترنح من فرط النشوة والسرور والسعادة .. ولكن المؤمن لا يحب أن يترنح مهما كان سعيدا ؛ ان الذى اباح له الفرح وبين اسـبابه ، امره بالاعتـدال فى كل شىء ((**ان الله لا يحب المسرفين**)) .

وهنا تقفز الى الذهن ســؤال فى غاية الاهمية .

كيف يفرح المؤمن ؟ وكيف تفرح المؤمنـة ؟ وهل يمكن أن يفرح أحدهما أو كلاهما من فرط النشوة ، او يملأ الجو بالضحك الصاخب والقهقهة العالية ؟ هل يمكن ان يتجاوز كل حد فيمشى مختالا فرحا فخورا ، يظن انه اعظم الناس ، وأنه جاء بما لم تات به الأوائل وما يعجز عنه الاواخر ؟ انه لا يفعل ذلك الا اذا ركبه الشيطان وعشش فى راسـه ، ثم باض وافرخ فى هـذه الراس فابعدها عن الجادة .

ان اسلوب المؤمن فى التعبير عن الفرح والسرور لابد ان يكون اسلوبا مهذبا ، ومع ذلك فانا نرد الأمر الى الله والرسول ، لنستطيع الاجابة عن هـذا السؤال ، اما القرآن الكريم فيؤكد ((**ان الله يامر بالعدل** ...))(٢٥) والاعتدال مشتق من العدل ، وكما يامر الله بالعدل فى كل شىء ، فانه ينهى عن الاسراف فى أى شىء ((**ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين**))(٢٦) .

واما السنة النبوية العملية فى ذلك ، فتصورها امى وامك وام المؤمنين جميعا عائشة رضى الله عنها حين تقول (ما رايت

---

(٢٥) الاية رقم ٩٠ من سورة النحل .

(٢٦) الاية رقم ١٤١ من سورة الانعام .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا مستلقيا قط ، حتى تبدو لهاته ، انما كان يبتسم) .

لقد كان عليه الصلاة والسلام اسعد خلق الله ، وكان يمزح ولا يقول الا حقا ، وكان يحب أن يدخل السرور على الناس ، ويحثنا على ذلك . واستمع اليه وقد سئل عن افضل الاعمال فقال (افضل الأعمال ان تدخل السرور على الناس) ولكنه مع ذلك وضع لأسلوب التعبير عن الفرح والسرور ضوابط حتى لا يصل الى حد الاسراف ، وهذا هو المنهى عنه فى الفرح وفى غيره من الشئون ، واظن ان الوقت قد حان لمناقشة المسألة التى اشرنا اليها فى المقدمة ، وهى ما ورد فى قصة قارون **((اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين))** ، فهذا بالضبط ما نتحدث فيه الآن **((ان الله لا يحب الفرحين))** الا ترى أن صيغة الفرحين هى من صيغ المبالغة ؟ فالفرح بكسر الراء هو المسرف فى الفرح والمسرف فى التعبير عن فرحه بأساليب يتنافى مع الاعتدال والعدل ، ان الله لا يحب الفرحين لأنه لا يحب المسرفين ، اما أن تكون منشرح الصدر مسرورا ، أن تكون سعيدا بايمانك ، وأن تعبر عن هذا السرور باعتدال ، فذلك ما يدعو اليه الاسلام ، ولا ينافى ابدا مع قوله تعالى **((ان الله لا يحب الفرحين))** فالروح المرحة تسهم فى تفريج الأزمات وانعاش العواطف ، **وطرد اليأس والفشل** .. وأنت تعرف ان موسى عليه السلام طلب الى ربه ، فى الوادى المقدس طوى ، أن يشرح له صدره ، ولا يمكن لنبى الله موسى أن يطلب الى الله شيئا غير مباح ، كما تعرف أن رب العزة سبحانه يمن على نبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بانه شرح له صدره ، وعاتبه أن عبس مرة فى وجه من جاءه يطلب الهدى ، ولم يعاتبه ابدا على الابتسام ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام دائم الابتسام ، وكان يدعو الصحابة ويدعونا الى

الابتســـام فى وجوه الناس فيقول (ابتســـامك فى وجه اخيــك صدقة) .. وحينما تحدث عليه الصلاة والســلام عن المراه الصالحة جعل أول شرط من شروطها (اذا نظر اليها زوجهـــا سرته) وهو الذى يوصينا بالترويح عن القلوب فان القلوب اذا كلت عميت ... ويتحدث الرواة عن نعيمان بن عمرو الانصارى فيقولون انه كان ضحوكا بساما ، وان النبى صلى الله عليه وسلم قال عنه (يدخل نعيمان الجنة ضاحكا) .

ولعلك تعرف ان رســـول الله صلى الله عليه وســـلم كان يقول : (ان الله يحب أن يرى اثر نعمته على عبده) فقل لى بربك كيف يرى اثر النعمـــة عليه ؟ بالهم والغم والحزن ؟ ام بالبهجـــة والسعادة والسرور ؟ ثم انك تعرف انه يدعونا للعمل الصالح وينهانا عن عمل السيئات ، ثم يضع مقياسا للايمان يتصـــل بالحسنات والسيئات وبما ينتج عنهما كرد فعل فى نفس المؤمن من ســـعادة او شقاء ، من سرور او استنياء ، فيقول عليه الصـــلاة والسلام (اذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن) .

ومما لاشك فيه انه يدعوك للاكثار من الحسنات أى للاكثار مما يسر قلبك ويسعد حياتك لتنشر السعادة على ما حولك من الأشياء ومن حولك من الاحياء ، وينهاك عن عمل السيئات أى عن عمل ما يسوءك ويحزنك ويشقيك ويفسد الحياة .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

انكما مدعوان الى السعادة حتى اذا كانت الســـماء ملبدة بالغيوم :

قـــال الســـماء كئيبـــة وتجهمـــــا
قلت ابتســـم ، يكفى التجهـــم فى السما

فابتسم يا اخى للحياة ، واستمع الى الكون كله يسبح بحمد الله ، استمع الى الجبال تؤوب معك ، والى الطير تغرد من حولك ، واستمع قبل ذلك كله الى دقات قلبك تصدح بالسعادة ، واجعل قسمات وجهك تتلألاء بالنور مشرقة ، ولا تسمح لأعداء الحياة ان يحولوا بينك وبين اشراقة الوجه وحلاوة الايمان .

الفصـــل الســـابع

العـــلم نـــور

هل تعرف صلة النور بالسعادة ، وصلة الظلام بالشقاء ؟

وهل فكرت فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الظـــلم ظلمات يوم القيامة) ولحظت هـــذا التقارب اللفظى بين الظلم والظلمات ، وصلة ذلك بالتعاسة والشقاء ، كما عرفت صـــلة الجهل بالظلم ، ظلم الانسان لنفسه على الأقل ؟

انك بالطبع تعرف أن كل رسالات السماء كان هدفها اخراج الناس من الظلمـــات الى النور ، ولكن من اين جاءتهم هـــذه الظلمات ؟ من الجهل ؟ من الغفلة ؟ من النسيان ؟

ان اردت أن تعرف دور النسيان فى هذه الظلمـــات فاقرأ قول الله سبحانه ((**ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**))(١) النسيان اذن هو أصل البلاء ولذلك ســـمى القرآن الكريم ذكرا ، وانزله رب العزة سبحانه على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس (لعلهم يتذكرون) (لعلهم يتفكرون) يتذكرون ماذا ؟ يتذكرون عهد الله وميثاقه الذى واثقهم به ((**واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشـــهدهم على انفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا**))(٢) ويتفكرون فى ماذا ؟ يتفكرون فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وغير ذلك من آيات الله الكونية . يتفكرون فى خلق انفسهم وأولادهم وازواجهم واختلاف السنتهم والوانهم ، وغير ذلك من الاسرار النفسية التى

---

(١) الاية رقم ١١٥ من سورة طه .

(٢) الاية رقم ١٧٢ من سورة الاعراف .

ندعو الى الايمان باوضح بيان وافصح لسان ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، ولكن اكثر الناس اصابه النسيان ، ورانت على قلبه الغفلة ، وكما يغطى ظلام الليل ضوء النهار حينما يسلخ منه النهار ، تغطى الغشاوة بصائر الناس حينما يجرفهم تيار الغفلة والنسيان ، فيفسد فطرتهم ، ويحجب نور الله عن قلوبهم ، الا من رحم ربى ، فاهتدي بفطرته السليمة ، وقليل ما هم .

من اجل ذلك جاءت رسالات السماء تكشف هذه الغشاوة عن القلوب والبصائر ، لتعيد الناس الى الفطرة السليمة ، وتريهم آيات الله فى الآفاق وفى انفسهم ، فمن اهتدى فقد خرج من الظلمات الى النور ، ومن أبى فقد ظل يتخبط فى ظلمات الجهل والكفر والضلال ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

العودة الى دين الفطرة اذن هى العودة الى النور ، هى انتصار النور على الظلمات المتراكمة من النسيان والغفلة والتخبط .

العودة الى دين الفطرة اذن هى المنقذ من الضلال والشقاء .

والعودة الى دين الفطرة نور « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » والعقل السليم الذى يهتدى الى معرفة الله هو أصل النور ، ثم يأتى بعد ذلك نور العلم ، نور الشريعة ليصقل هذا العقل .

ولعل من الطريف ما تصوره أحد الشعراء من خلاف يقع بين العقل والعلم ثم ينتهى الأمر بالصلح بينهما ، وأظهر تصوره لهذا الخلاف بنظم هذه الأبيات :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا
من ذا الذى منهما قد احرز الشرفا
فالعلم قال انا احرزت غايته
والعقل قال انا الرحمن بى عرفا
فافصح العلم افصاحا وقال له
بأينا الله فى فرقانه اتصفا ؟
فبان للعقل أن العلم سيده
وقبل العقل راس العلم وانصرفا

العلم ، العلم يصقل العقل ويسمو به ، ويسمو صاحبه حسب مبلغه من العلم ، يسمو ويسمو حتى ينال من التكريم ما نقرا عنه فى الآية الكريمة ((**شهد الله أنه لا آله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط**))(٣) .

هل عرفت الآن لماذا ينظر الاسلام الى العلم على انه (نور على نور) ؟

انهما نوران مجتمعان ، نور العقل الذى يهدى صاحبه الى الاسلام ، ونور العلم الذى يدعو اليه الاسلام ، وبشر العلماء من المؤمنين ، انهم الهداة ، ان مثلهم فى الأرض كمثل النجوم فى السماء(٤) انهم كما وصفهم الصادق الأمين (ورثة الأنبياء) وماذا ورثوا عن الأنبياء ؟ ورثوا اقدس رسالة ((**ومن احسن**

---

(٣) الآية رقم ١٨ من سورة آل عمران .

(٤) وقد افسدت بعض وسائل الاعلام هذا المعنى حين قصرته على المطربين والمطربات واضرابهم من اهل الفن ، ولم تتكرم باطلاق هذا اللقب (نجم) على احد من العلماء .

قـولا ممن دعـا الى الله وعمـل صالحـا وقـال اننى مـن المسلمين))(٥) .

انه يدعو الناس الى حسن استخدام عقولهم ، الى حسن استخدام المواهب والنعم ، ليسعدوا فى دنيـاهم ويسعدوا فى اخراهم ، وهل يشقى الكفار فى دنياهم واخراهم الا بسـوء استخدام عقولهم ومواهبهم ((**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالأنعـام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون**))(٦) أولئك فى ظلمات لانهم عطلوا ادوات النور ، عطلوا عقولهم وسمعهم وابصـارهم ، عطلوا وسائل العلم ، فلا هم احفظوا بالفطرة السليمة ، ولا هم استجابوا لمن يدعوهم لمـا يحييهم ، حرموا أنفسـهم من النور الداخـلى الفطرى اذ خنقوه ، ومن النور الذى جـاء به رسـل الله اذ هجـروه وانكروه !

ولو انك وضعت هـذه الصورة القبيحة ، صـورة اولئك الذين غفلوا حتى انكبوا فى النار على وجوههم فى النهاية ((**وقالوا لو كنا نسـمع او نعقل ما كنا فى أصحاب السـعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحـاب السـعير**))(٧) لو انك وضعت هـذه الصورة القبيحة بجانب الصـورة المشرقة المضيئة ، صـورة الذين يهديهم ايمانهم الى حسن استخدام العقل والسمع والبصر ، الى حسن استخدام المواهب والنعم ، فكان ايمانهم نورا ، وكانت

---

(٥) الاية رقم ٣٣ من سورة فصلت .

(٦) الاية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٧) الآيتان رقم ١٠ ، ١١ من سورة الملك .

معرفتهم نورا ، وابتعدوا عن الظلم والظلمات : عن ظلم انفسهم وظلم غيرهم ، وعن ظلمات الكفر والجهل والضلال ، فكانت حياتهم نورا على نور ، وكانت آخرتهم الفوز والنجاه ((**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم الم نكن معكم ؟ قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير**))(٨) .

لو انك وضعت هاتين الصورتين أمامك ، كما يضعهما القرآن الكريم امام الناس ، وقد مر بك ما عرضه فى سورة الفجر من اهوال يلقاها من عاشوا فى الظلمات ، ومن تكريم تلقاه النفس المطمئنة الراضية المرضية ، ومر بك فى سوره العصر ما يخلع القلوب ، حين ترى الانسان فى خسر يحيط به من كل جانب ، يطوقه ، يدمر حياته ومستقبله ، ولكنك تتنفس الصعداء حين ترى ذلك الاستثناء ، استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وهنا فى سورة الحديد ترى الصورتين معا ، ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم فتفرح وتسعد ، وتسأل الله أن تكون منهم ، وترى المنافقين والمنافقات الذين

---

(٨) الآيات من رقم ١٢ الى ١٥ من سورة الحديد .

عاشوا فى مجتمع المؤمنين وقلوبهم مع الكفار ، تراهم فى حالة استجداء ذليل يقولون للمؤمنين والمؤمنات « **انظرونا نقتبس من نوركم** » ويأتيهم الجواب الساخر « **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** » اى ان النور الذى يسعى بين أيدى المؤمنين والمؤمنات وبايمانهم جاء معهم من الدنيا ، كانوا على نور فى الدنيا فجاء معهم نورهم الى الآخرة (نور على نور) اما انتم ايها المنافقون والمنافقات فان استطعتم أن ترجعوا الى الدنيا لتلتمسوا النور من هناك فارجعوا ، وما هم بخارجين من النار ، ولكنها اجابة تؤكد ان النور فى الآخرة لا يلتمس الا من نور الايمان فى الدنيا ، وان سعادة الآخرة بالنعيم المقيم امتداد لسعادة الدنيا بالايمان والعمل الصالح .

وفى هاتين الصورتين ترى المنافقين والمنافقات يزعمون انهم كانوا مع المؤمنين (الم نكن معكم ؟) لأنهم عاشوا بينهم يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ، فانكشفت حقيقتهم المظلمة هناك ، ووجدوا أنفسهم فى معسكر الكفار كما كانت حقيقتهم فى الدنيا « **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** » لو انك وقفت أمام هاتين الصورتين واعطيتهما حقهما من التأمل والتفكر والاهتمام ، لو انك امعنت النظر حتى ارتسمت الصورتان فى ذهنك ، لفررت من الظلم والظلمات ، واسرعت تلتمس النور ، وتلتزم النور ، وتسبح فى بحار النور .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

هل عرفت لماذا يهتم الاسلام بالعلم ، بالنور ، بصقل المواهب ، **وحسن استخدام النعم ؟**

ان الاسلام يحتفل بالعلم لأنه يحتفل بكل طاقات الحياة ، لانه دين الحياة ، دين السعادة .

يحتفل الاسلام بالعلم لانه يقاوم التلوث الفكرى ، وينقذ الانسان من مخالب الحيرة والاضطراب والتخبط ، يحتفل الاسلام بالعلم لأنه يتخذه وسيلة لاصـــلاح النفوس وتهذيب الاخـــلاق وتحقيق السعادة ، ولذلك فانه ينعى على أولئك الذين اتخذوا القرآن مهجورا ، ويدعوهم ألا يقطعوا علاقتهم بالقرآن ولا يجمدوها ، ولعله من الطريف المفيد أن تعرف مناقشـــة السلف الصالح لهذه القضية ، ومحاولتهم تحديد مدة الهجر ، وتحديد القدر الذى تقراه فى اليوم حتى لا تكون هاجرا للقرآن ، فمنهم من ينصحك بان تقرأ عشرة اجزاء فى اليوم ، لتكمل القرآن كل ثلاثة أيام ، ومنهم من يخفف عنك فيكتفى بقراءة جزء فى اليوم لتكمـــل القرآن مرة فى الشهر ، وبين هذين القولين اقوال عديدة تختلف تشددا وتخفيفا ، ولكنها تجتمع كلها فى ان الانسان يخسر كثيرا اذا هجر القرآن يوما كامـــلا .

ومما لاشك فيه أن المســلم اذا حافظ على الصلاة لا يكون هاجرا للقرآن ، لانه لا صـــلاة بدون القرآن ، ولأن الصـــلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، يؤدونها كل يوم خمس مرات ، فضلا عن السنن والنوافل ، ومما لاشــك فيه أيضا أن اليسر الذى يتخذه الاســـلام منهجا يلفتنا الى قوله تعالى ((**فاقرءوا ما تيسر من القرآن**))(٩) كل يقرأ ما يتيسر له . المهم الا تكون كالبيت الخرب ، الا يخلو جوفك من القرآن ، المهم أن تقرأ وتستمع وتنتفع ولا تهجر القرآن ، وتعرف أن هـــذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بايدينا ، فاذا تمسكنا به لن نضـــل ابدا .

---

(٩) الاية رقم ٢٠ من سورة المزمل .

وارجو الا يتطرق الى ذهنك فى لحظـــة من اللحظات اننا نريد ان نقصر العلم الذى يدعو الاسلام اليه على علوم القرآن والدراسات الدينية ، اننا نريد ان ندعو كل علمـــاء المسلمين مهما يكن تخصصهم ، فى الطب ، فى الهندسة ، فى الكيمياء ، فى النبات ، فى الحيوان ، فى اى مجـــال من مجالات العلم الكثيرة المتنوعة ، ان يكونوا على صلة بالقرآن ، والا يهجروا القرآن ، بل انهـــا دعوة الى كل مسلم وكل مسلمة فوق هـــذا الكوكب وفى اى جيل من الاجيـــال .

ان الاسلام يدعو الى العلم فى كل مجالاته ، ويقدره فى كل تخصصاته ، ان الاسلام لا يرفض من العلوم الا علما ينكر الدين أو يضر بالعقيدة ، اننا لا نقبل مثل هـــذا العلم لأنه فى الحقيقة ليس علما ، انه ينكر الواقـــع ، ويتنكر لأعظم حقيقة علميـــة صادقة ، ولن تعجب من تشـــددنا فى هـــذا الموقف ، موقف رفضنا لأى علم ينكر الدين ، لن تعجب من ذلك حينما تعرف اننـــا بالدرجة نفسها نرفض أى دين يرفض العلم ، ان الارتبـــاط بين الدين والعلم فى الاســـلام ارتباط عضوى لا ينفصم ، ان الاسلام يسمو بمداد العلماء وهو كما تعرف مداد كأى مداد ، ولكنه فى ايدى العلماء يستمد قدســـية تساويه بدماء الشهداء ، وهى اغلى الدماء ، واعظم الدماء ، ان مداد العلماء يسيل من اجل اكرم رسالة ، دفع الجهل وتبديد الظلمات ، ودماء الشهداء تسيل من اجل اشرف غاية ، دفع الظلم وتدمير العدوان !

من اجل ذلك يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدم الشهداء ، فاذا كان العقل السليم الذى اهتدى الى الاســـلام قد حقق النور الأساسى ، فان العلم يضيف اليه نورا جديدا ((**يرفـــع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجـــات**))(١٠) .

---

(١٠) الآية رقم ١١ من سورة المجادلة .

صحيح أن الايمان هو النور الأســـاسى ، بل هو احيـــاء النفس كما تصوره الآية الكريمـــة ((**أو من كان ميتا فاحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟**))(١١) فمن ظل على كفره وضــــلاله فهو فى ظلمات لم يخرج منها ، اما من اهتدى الى الاســـلام فقد احياه الله وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، لأن الاســـلام حى فى اول درجاته يقدم للمســـلم قدرا من العلم الأســـاسى ((**فاعلم انه لا آله الا الله**))(١٢) ولكن المسلم الذى يضيف الى اعتناق الاســـلام سموا الى العلم والمعرفـــة يزداد نورا على نور ((**هــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ !**))(١٣) وحتى الذين يعلمون ليسوا سواء ، انهم درجات ((**وفوق كل ذى علم عليم**))(١٤) ان العلم بحر لا ساحل له ، وكلما ازداد الانسان علما كلما عرف انه لا يزال فى حاجـــة الى العلم ، **كلما ارتوى من العــلم** أحبه وتعشقه ، واكتشف انه لا يزال بعيدا عن الغاية (لا يزال الرجــل عالمــا ما طلب العلم ، فاذا ظن انه علم فقد جهل) وهل هنـــاك اجهل ممن يظن انه بلغ من العلم اقصــــاه ؟ ان المخلص فى طلب العلم لا يشبع ، كلما فرح بمعرفة جديدة ، تطلع الى السماء فى شوق وحب ((**رب زدنى علمــا**))(١٥) فالعلم فى الاســـلام رغيبـــة تعشق (من اراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن اراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن ارادهما معا فعلية بالعــلم) ولو اردت ان ترى البلاغة والاعجاز ، وان تتذوق البيان الجميل والتصوير المؤثر ،

---

(١١) الاية رقم ١٢٢ من سورة الانعام ·

(١٢) الاية رقم ١٩ من سورة محمد ·

(١٣) الاية رقم ٩ من سورة الزمر ·

(١٤) الاية رقم ٧٦ من سورة يوسف ·

(١٥) الاية رقم ١١٤ من سورة طه ·

فانظر الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (ان الملائكة لتضع اجنحتها لطــالب العلم) يا لاروعة ! الملائكة الاطهــار تضــع اجنحتها ، تخفضها احتراما لطالب العلم ، فماذا تفعل اذن لمعلم العلم ... ؟ لك أن تتصــور ، وتسبح فى بحار التصور .

ان طالب العلم يلقى احترام الملائكة لأنه فى طريقــه الى الجنة ، وهل يسلك الانسان طريقا الى العلم دون ان يســلك بذلك طريقا الى الجنــة ؟ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ارسله ربه رحمة للعالمين يبشرنا (ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيه علما الا سهل الله له به طريقا الى الجنة) ، بل ان النعمة التى تحس بها أثناء اكتشافك لشىء جديد أو قراءتك لفكر جديد ، تغمرك بالسعادة ، وتملأ نفسك بالمرح والسرور والدهشة والعجب ، لأن شــيئا بهذه الدرجة من الجمال والروعة قد ظهر لك : أو لأن فكرا بهذه الدرجة من الذكاء والعمق والاثارة قد وصل اليه علم الانسان .

ومن هنا ايضا كان طلب العلم فى الاســلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ، اى انه ليس واجبا ضروريا فحسب ، ولكنه واجب دينى كذلك ، لأن اختيار كلمة (فريضة) يؤكد ان الاسلام ينظر الى العلم على أنه عبادة من العبادات ، بل ان رســول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فضــل مجلس العلم على مجلس العبادة ، واختــار مجلس العلم لينضم اليه ، وقــال كلماته الخالدة فى سمع الزمان (مجلس علم خير من عبــادة سبعين سنة) خير من ؟ اى انه لا يعادل عبادة سبعين سنة فحسب ، وانما هو خير منها ، خير منها كم ضعفا ؟ كم مرة ؟ لك ان تتصور ما تشاء ، لأنه ليس من طبيعة الاســلام تحديد هــذه الأمور ، والله يضاعف لمن يشاء ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يا ابا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتـــاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم ، عمل به او لم يعمل ، خير من ان تصلى الف ركعة) فاذا سمعت بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أفضـــل الصـــدقة ان يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخـــاه المسلم) فانك لابد مبادر الى افضل الصـــدقة .

أية سعادة يمكن للانسان أن يحققها لنفسه وللناس عن طريق العلم ؟ بل اية متعة روحيـــة يرتقى اليها المسلم اذا احسن استخدام مواهبه فى تحصيل العلم ، واكتشاف الجديد فى عـــالم النفس او فى عالم الاكوان .

ولمـــا كان العقـــل هـــو اداة العـــلم ، فقـــد احتفـــل الاســـلام بالعقـــل احتفـــالا شـــديدا ، وجعـــله اســـاس التكليف ، وفضـــل بـه الانسان على سائر المخلوقات ، ولعلك تعرف ان الاســـلام لهذا حرم الخمر ، وحرم كل ما يجور على العقل او ينقص منه ان تحريم الخمر فى الاسلام يؤكد احترام الاسلام العقل واعتزازه به ، وتأثيم كل ما يمسه بسوء ، واقرأ هذا البيت الذى يندم فيه صاحبه على ما شرب من خمر ، بل انه لا يصرح باســـمها اشمئزازا منه ، وانمـــا بسميهـــا (الاثم)

شربت الاثم حتي ضل عقلى كذاك الاثم تذهب بالعقول

فليكن اهتمامك بعقلك فوق كل اهتمـــام ، انى اعرف كثيـــرا من الناس يعنون كل العناية بنظافة احذيتهم وهـــذا جميل ، انه امر نغبطهم عليه ، ولكنهم لا يوجهون معشـــار هـــذه العنايـــة لتنظيف عقولهم ، بل انهم يضيقون بها ويعرضونها للمهالك . واياك ان يغرك بيت ابى الطيب ، انه بيت خادع ، قاله تحت ظروف معينة ، فلا تصـــدقه ابدا فى قوله :

ذو العقـل يشـقى فى النعيم بعقـله
واخـو الجهـالة فى الشـقاوة ينعم

فالشعر كما تعلم ليس علما ، انه فن ، اى انه يعبر عن وجدان الشاعر فى لحظة من اللحظـات ، ولا يرقى لمستوى الحقـائق العلميـة .

لا تصدق ان العاقل يشقى بعقله ، ان أبا الطيب معروف بمبالغاته المتطرفة ، انه يجعل العاقل شقيا وهو فى النعيم ، تصور ! ويجعل الجـاهل سعيدا بجهله وهو فى الشقاء .

تأمل هـذه المعانى وتعجب ، هل يشقى العاقل فى النعيم ؟ فان عقله اذن ؟ وهم ينعم الجـاهل وهو محاط بالشقاء ، فابن جهـله اذن ؟

لا ، لا تستمتع الى هـذا البيت الخادع ، ولا تظلم العقل فتظلم نفسك وتظلم الحقيقة ، ان العقل حبيبك وصديقك ، انه عونك فى الحيـاة ، اياك ان تفرط فيه او تغفل عن رعايتـه ، التمس له العلم النافع ، وتطلع به الى السـماء ، الى الأفـق الأعلى ، الى حيث السعادة الحقيقية ، ولا تكف ابدا عن الدعاء الصادق النبيل .

((رب زدنى علمـا))

الفصل الثامن

العمل

هل سمعت ما يتردد فى الأوساط العلمية فى أوربا وأمريكا ؟ انهم ينتظرون يوما نتقدم فيه المخترعات وتكثر الآلات لتقوم بالعمل بدلا من الانسان ، ويظنون أن الانسان سيبقى حينئذ بلا عمل ، وانه سيكون سعيدا بذلك .. وحتى « برتراند راسل » الذى تحظى افكاره بثقة الكثيرين ، يدعو الناس الى تهيئة انفسهم لهذا الوضع منذ الآن .

هذا ما يتردد هناك . أما الذى تردده الأوساط هنا ، فهو ان العمل لعنة حلت بالانسان منذ ان طرد آدم من الجنة .. بل أن شيخا كبيرا تحظى افكاره بثقة الكثيرين أيضا ، ظهر على شاشة التليفزيون ، وهو حين يظهر على الشاشة تكون الجماهير فى انتظاره لعلمه وفضله وبلاغته ، وكان فى هذه المرة يتحدث عن آدم عليه السلام ، وبالرغم من انه كان يفسر سورة البقرة الا انه تعرض لتفسير الآية الكريمة ((**فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**))(1) من سورة طه، وهو أسلوب فى التفسير معروف ، فان آيات القرآن يفسر بعضها بعضا ، ولكن المدهش أن فضيلته فسر الشقاء بالعمل ، ثم اتجه الى الناحية اللغوية .. فقال ان الخروج واقع على المثنى (فلا يخرجنكما) يا آدم أنت وحواء ، ولكن الشقاء مسند الى

---

(1) الآية رقم ١١٧ من سورة طه .

المفرد (فتشقى) اى يا آدم ، وبهذا يكون آدم وحده هو الذى يعمل ويشقى(٢) .

يا سبحان الله ! كان المراة فى بيتها لا تعمل ، وكأن تفسير الشقاء بالعمل امر مسلم به .. ان الانسان يحب العمل بفطرته ، ويسعد به سعادة لا حد لها .. هـذا هو الأصـل ، اما كره العمل أو احتقاره أو الفرار منه أو الشقاء به ، فتلك امور طارئة تاتى من فساد التربية أو انحراف الاعـلام او اضطراب البيئة أو الممارسة الخاطئة للعمل .

ولسائل ان يسال فى عجب ، هل يكون الانسان سعيدا حقا بلا عمـل .

فكر فى هذا السؤال ، انى ارى السعادة تغمرنى مرتين بسبب العمل ، مرة اثناء العمل نفسه ، ومرة عند نهايته والوصول الى ثمرتـه .

ولا ازال اذكر قـولا قرأته منذ عشرات السـنين الكاتب الفرنسى فولتير ، يقول فيه (ان العمـل ينقذنا من ثلاثة امور خطيرة ، ينقذنا من الملل ، ومن الحاجـة ، ومن التفرغ للرذيلة) اى ان العمل فى نظر فولتير يغلق كثيرا من ابواب الشقاء ، ويفتح العديد من أبواب السعادة .

---

(٢) هو فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى نحبه ونحترمه لعلمه وزكائه وفضله ، ولكن العـلم البشـرى مهمـا بلغ عـلم قاصـر ، ويقول الشاعر : (كفى المرء نبلا ان تعد معايبه) .

أما علماء النفس فيقدمون لك نصيحة غالية لكى تسعد بالعمل وتنجح فيه (اذا لم نعمل ما تحب ، فعليك ان تحب ما تعمل) اى أن الحب شرط اساسى .

ولعل ما ذكره « منتيجيو » يكشف لنا بعض اسباب الشكوى التى نسمعها عن العمل (يبدو ان هذا الحب الصادق للعمل يشبه غيره من انواع الحب فى ضرورة كتمانه والتفنن فى هذا الكتمان ، فلابد ان هناك شيئا بمنع المحامى من التصريح بانه سيظل محبا لمهنته لما تحرك فى نفسه من اثارة وسعادة ، حتى لو تهرب موكله من الوفاء بما التزم به .. وفى كل ناحية من النواحى نجد العامل المجهد السعيد يضم شفتيه على حبه لعمله ، خوفا من النتائج التى متوقعها اذا اظهر شدة فرحه بالعمل او كثرة ثنائه على مهنته)(٣) .

واكاد اصدق هذا الرجل ، فانى لا اظن ان هناك انسانا فى الأرض لم يجرب — ولو مرة فى حياته — ان قام بعمل ينفعه او ينفع غيره من الناس ، واحس بالسعادة تملأ كيانه كله ، حينما انجز هذا العمل ، أو حينما راى ثمرته ، أما من يعملون الصالحات ، اما من يعملون ويحسنون ، فانهم يعرفون هذه السعادة مرات عديدة فى اليوم الواحد .

من اجل ذلك نجد الاسلام لا يدعونا الى العمل فحسب ، لا يدعو الى العمل كما يدعو فولتير لينقذنا من الملل والحاجة والرذيلة فحسب ، وانما يدعو الى العمل الذى يحقق لك السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، يدعو الى العمل الصالح الذى

---

(٣) « عندما يكشف الكاتب اسرار مهنته » ص ٢٤٠ ترجمة الدكتور كامل البوهى .

يشعر اثناء القيام به بسعادة غامرة ، وتشعر بعد الانتهاء منه بالفوز العظيم ... هل تظن انى ابذل الجهد فى طلب العلم ثم اكتب لك واسهر ، وادفع بما كتبته الى المطبعـــة واجرى .. الا لأنى اشعر بالسعادة فى هذا العمل ؟

بل هل تقرأ انت هــذا الكتاب ؛ وتبذل جهدا فى القراءة بغير شك ، الا لانك تشعر بلون من الوان السعادة فى قراءته .

ان الاسلام حينما يدعو الى التسابق فى الخير ((فاستبقوا الخيرات))(٤) ، لا يعفى احدا من العمل بحجة انه غير محتاج الى ان يعمل . ان العمل فى نظر الاسلام ليس لسد الحاجة المـــادية فحسب (يا فاطمة بنت محمد ، اعملى ، فلن أغنى عنك من الله شيئا) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى أهل بيتــه (لا ياتينى الناس باعمالهم وتأتونى بأحســـابكم) ثم ينادى كل انسان فى هذه الأرض مؤكدا على اهمية العمل (من أبطـــأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

انهم فى الشرق والغرب لا يزالون يناقشون هـــذه القضية ويختلفون فيها ، هل يسعد الانسان بالعمل ام يشقى ؟ وقـــد حسمها الاســـلام منذ مئات السنين .. ان كلمة العمل من اكثر الكلمات دورانا فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، ولكن هذه النصـــوص الاسلامية لا تتحدث عن مجرد العمـــل ، وانما تتحدث عن هدفه وعن اسلوبه ، وتقرر دائما ان العمـــل الصالح يسعد صاحبه ، وان العمل السيء يشقى به صاحبــه

---

(٤) الآية رقم ١٤٨ من سورة البقرة .

« من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون »(٥) ولعل هذا الوضوح لا يترك مجالا للخلافات والمناقشات حول نوع العمل المطلوب ، انه واضح انه العمل الصالح ، اما عن الهدف فان اشهر الأحاديث النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى)(٦) .

واظنك لا تشك لحظة فى أن المؤمن الصادق يسعد كل السعادة وهو يعمل ويحسن عمله ، ويذكر اثناء العمل أن الله يراه ويرضى عنه ، وان رسول الله يراه ، وان المؤمنين جميعا سيرون عمله ، وأن نتيجته الطيبة سوف تعرض على الله فى النهاية ، فينبئه بما عمل ، ويشكره ، ويكافئه ، **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون »**(٧) ولا تنطبق هذه القاعدة على عمل دون آخر ، انها شاملة ، وسواء اكان العمل كبيرا أم صغيرا فانه يعرض ، ان الرسام الذى يعرض لوحاته ، ويقبل الجمهور على رؤيتها ، يسعد كثيرا بهذا العرض لأعماله ، لا سيما اذا تكرم السيد وزير الثقافة او مندوبه ، فشرف المعرض ، واعتقد انك معى فى ان هذا ليس شيئا بجانب ما نتحدث عنه ، انه لا يقاس بشعور المؤمن وهو على يقين من ان عمله سيعرض على رب الملك والملكوت ، وان رسول الله سيفرح به ويهنئه ، وان المؤمنين كذلك سيرونه ويغبطونه ، وليس ادل على الاهتمام بالعمل ايا كان مجاله وأيا كان قدره ، من قول الله سبحانه

---

(٥) الآية رقم ٤٦ من سورة فصلت .

(٦) البخارى .

(٧) الآية رقم ١٠٥ من سورة التوبة .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٨) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبه الناس بكل وسيلة الى عدم الاستهانة بأى عمل ، فقد أخرج البيهقى عن انس رضى الله عنه أن سائلا اتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله ، فأعطاه النبى تمرة ، فقال السائل : سبحان الله ا نبى يتصدق بتمرة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (او ما علمت ان فيها مثاقيل ذر كثيرة) وهو عليه الصلاة والسلام يشير بهذا الى الآيتين السابقتين من سورة الزلزلة .

ونريد هنا أن نؤكد أمرا نظنه فى حاجة الى زيادة بيان ، وهو أن العمل فى الاسلام يشمل العطاء ، ويشمل القول ، ويشمل كل نشاط للجوارح ، بل ويشمل الاشارة ، ولذلك كان الغمز واللمز محسوبا على صاحبه ، والحساب فى الدنيا والآخرة يكون على كل ذلك ، فحينما تقرأ قول الله سبحانه « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا** »(٩) فاننا نفهم منه أن الحياة كلها بالنسبة للمسلم مباراة فى حسن العمل ، كل عمل ، وكل قول ، وكل اشارة ، وكل نية .

اما العمل بالمعنى الخاص الذىتحدث عنه « برتراند راسل » « وفولتير » « وم بو » وغيرهم ، العمل فى الانتاج المادى ، فانا نعلم علم اليقين أن الدين ليس بمعزل عنه ، لأنه ليس بمعزل عن الحياة ، بل انه هو الحياة ، ولذلك يدفع ابناءه الى العمل

---

(٨) الايتان الاخيرتان من سورة الزلزلة .

(٩) الآية رقم ٢ من سورة الملك .

المنتج ويرغبهم فيه بكل سبيل ، حتى يقبلوا عليه محبين له سعداء به ، لا متبرمين منه ولا اشقياء بمزاولته ، ومن بين ذلك ما نقرأه عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه كان يأبى الا أن يشارك اصحابه فى العمل ، سواء فى البناء او فى الجهاد ، أو فى الحراسة أو فى غيرها ، كما كان يقول لهم (ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا العمل فى طلب المعيشة) ويؤكد لهم بقوله وعمله انهم القوة الفعالة فى الوجود ، لأنهم يستمدون قوتهم من الله ، ولذلك فقد ترك عليه الصلاة والسلام للانسانية كما ترى اعظم نهر يجرى فى عروق الحياة .. فاذا كان احد الناس غنيا عن العمل فى طلب المعيشة ؛ فان امامه مجالات واسعة للعمل ، فالساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن غرس غرسا فاكل منه حيوان او انسان أو طائر كان له بذلك اجر ؛ وهكذا نجد ان ربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، كان من اعظم الدوافع الى العمل وحب العمل ، فانت حين تقرأ أن اطيب الكسب عمل المرء بيده ، وأن من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له ، تقبل على العمل بحب ينسيك المتاعب ، بل انه فى كثير من الأحيان يقلب المتاعب الى سعادة ، ما دمت راضيا عما تعمل ، راجيا من الله القبول ، لقد كان دعاء ابراهيم وولده اسماعيل عند رفع القواعد من البيت الحرام فى مكة ((**ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم**))(١٠) ولعل حبات العرق كانت تتحدر على وجه كل منهما ، وهو يعمل سعيدا بما يعمل .

واخرى اريد ان اشير اليها قبل نهاية هذا الفصل ، وهى أن العمل الذى تقوم به أيا كان مجاله ليعرض على الله ، لابد انك سوف تتقنه ، ومن هنا كانت كلمة الاحسان ،

---

(١٠) الاية رقم ١٢٧ من سورة البقرة .

فليس المطلوب منك لكى تسعد بالعمل فى دنياك واخراك هو مجرد العمل ، اى عمل ؟ وانما الذى يحقق لك السعادة الحقيقية هو أن تحسن العمل ... ان حسن النية ، وحسن الدافع ، وحسن الأداء ، هو الأسلوب الذى يمتاز بل عامل عن عامل .

والأخيرة فى هذا الفصل ، يوضحها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة(١١) فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر) اى ان فلسفة العمل فى الاسلام قائمة على أساس قدسى ، هو أن العمل عبادة (فله بذلك أجر) وقد ذكرنا فى الفصل الثالث كيف أن العبادة ، قرة عين وسعادة ، فهل يمكن بعد ذلك ان تصدق ان الشقاء هو العمل ، أو ان العمل هو اللعنة التى حلت بالانسان عند خروجه من الجنة ؟ !

لقد كان اسلافنا يؤكدون أن الله اذا غضب على قوم منعهم العمل ، ورزقهم الجدل ، واذا رضى عن قوم رزقهم العمل وجنبهم الجدل ، ولذلك فانى أؤكد لك ان اللعنة هى عدم العمل ، أو سوء العمل ، وأن السعادة كلها فى حسن العمل وحبه ، والاستمرار فيه حتى النهاية ، (خيركم من طال عمره وحسن عمله) .

---

(١١) شتلة النخل الصغيرة

الفصل التاسع

التركيز

لا تحسبن التركيز الذى اعنيه خاصا بالعمل ، والا كان امتدادا للفصل السابق ، وان كان التركيز فى العمل طريقا للنجاح ، والنجاح بدوره عنصر من عناصر السعادة .

ولا تحسبنه خاصا بالعلم ، وان كان تركيز الانسان على فرع من فروع التخصص العلمى من اهم خصائص العصر ، وابرز عوامل التقدم .

ولكن التركيز الذى استحق أن يفرد له فصل خاص فى كتاب السعادة هو التركيز على تحقيق الهدف .

عليك اذن أن تحدد الهدف اولا ، عليك ان تسال نفسك عن سر وجودك فى هذه الحياة ، وعن الغاية التى تتغياها ، والهدف الذى من اجله تعيش .

واياك ان تنزلق فى احد المزالق القديمة ، فقد روى أن احد الملوك فى بلاد الشرق القديم ، اراد أن يعرف سر الحياة وحكمة الوجود ، فارسل الى اكبر علماء العصر ، وكلفه ان يكتب له بحثا فى ذلك ، وغرق العالم فى ابحاثه ؛ وجاء بعد سبع سنوات الى قصر الملك ومعه قافلة من الابل تحمل بحوثه المستفيضة ، ولكن الملك اطل من شرفة قصره وراى ما تحمل الابل ، فصاح بالرجل : ارجع ... اختصر ، فلن استطيع قراءة ذلك كله .

واسفرت جهود العالم فى الاختصـــار عن حمل بعير واحد من المجلدات التى خطها بيده ، ولم يستغرق فى كتابتها أكثر من سنة ، ولكن الملك يصيح فيه من جديد ، ارجع ... اختصر .

وبعد ستة أشهر جاء العـــالم الى قصر الملك ومعه مجلد واحد يحمله فى يده ، وكان الملك فى حالة احتضار ، فقال للعالم فى صوت خافت : اختصر .. فلم تعد فى العمر بقية لاقرأ هذا الكتـــاب .

وعاد العالم فى اليوم التالى ومعه لوحة كتب عليها جملة واحدة فيها ما تمخضت عنه بحوثه فى سر الحيـــاة .. وكانت خاتمة كل هذا الجهد وذلك البحث ، تلك الجملة المليئة بالتعاسة والتشاؤم ، والشقاء .

(يولد الانســـان .. ويقاسى .. ويموت) .

احذر هذا المنزلق ، فانه عكس ما تؤمن به تماما ، انهـــا نظرية المتشائمين ....

ومنزلق آخر أحذرك منه ، انه منزلق خطير ، يرونه جديدا واراه قديمـــا باليا ، انهم لا يزالون يرددونـــه ويتغنون به ، ويسخرون له اجمل الالحان واعذب الأصـــوات ، ولكن الهدف خبيث ، والحيرة بادية تفصح عن نفسها ، فى كلمات نسمعها ، وكأنها مفروضـــة على النـــاس .. تنشر القـــلق والاضطراب وضياع الهدف والطريق .

جئت لا اعلم من اين ولكنى اتيت

ولقد ابصرت قدامى طريقا فمشيت

وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟

لست أدرى ..

واعتقد انك لست فى حاجة مطلقا الى ان تعبأ بما كتبه العالم المسكين فى لوحته التى قدمها للملك المحتضر ، ولا بما يقوله ايليا ابو ماضى فى هذه الطلاسم .

وانك يمكن أن تنأى بنفسك عن هذه المزالق ، وتحدد الهدف الذى يقتنع به عاقل مثلك ، وسعيد بايمانه مثلى ومثل الكثيرين من السعداء فى هذا الكوكب .

ان الهدف واضح ومحدد ، يبينه لنا خالق الأرض والسماء، والعليم بأسباب السعادة والشقاء ، انه يحدد الهدف بقوله سبحانه ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**))(١) والعبادة هنا كما تعرف تشمل العمل الصالح من غير شك ، كما تشمل القول الطيب والخلق الانسانى الرفيع ، فنحن نقرأ فى سورة هود فوضيحا لهذا الهدف ، وربطا للعبادة بالعمل الصالح ((**وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم ايكم احسن عملا**))(٢) ونقرأ فى سورة الملك ((**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا**))(٣)

---

(١) الآية رقم ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية رقم ٧ من سورة هود .

(٣) الآية رقم ٢ من سورة الملك .

ونقرأ فى سورة الكهف ((**انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا**))(٤) .

الهدف واضح اذن ، وهو أن تنجح فى امتحان عام هو حسن العمل ، بل انها مسابقة فى غاية الروعة والامتاع ((**أيكم أحسن عملا**)) مباراة ودية عظيمة ميدانها الحياة كلها . وجمهورها الكائنات جميعا ، والحكم فيها بصير لا يغفل ، عليم لا يخطىء ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يظلم ربك أحدا .

الهدف كما عرفت وكما يعرف كل من استجاب لهذه الدعوة الى السعادة ، هو فى ايجاز شديد : سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة .

هذا هو الهدف .

واذا كان تحديد الهدف هو النقطة الأولى التى تبدأ منها أول خطواتك انطلاقا الى الهدف ، فان كل جهد يبذل فى تحديد هذه النقطة ومعرفة الطريق ، انما هو جهد يعصم صاحبه من أن يضل ، وزورقه من أن يتوه بين شطآن الحياة .... تتخطفه الاهوال او تهوى به الريح فى مكان سحيق .

سعادة الدنيا والآخرة هى الهدف ، ولكن المحاذير كثيرة ، والاهوال خطيرة ، واول هذه المحاذير أن تترك الهدف دون تحديد ، فتضطرب حياتك بين شتى السبل .... ولعلك تعرف أن كل السبل غير الطريق المستقيم المؤدى الى الهدف مليئة بالشقاء ، وتذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسم خطا مستقيما واضحا كبيرا ، ثم رسم حوله خطوطا كثيرة ملتوية متعرجة عن يمينه وشماله ، ثم اشار الى الخط الواضح المستقيم ، وقال

---

(٤) الآية رقم ٧ من سورة الكهف .

هذا صراط الله المستقيم ، ثم نبه الى ان ما حول هذا الخط عن يمين وشمال هى خطوط منحرفة ، وهى طرق الضلال وان على راس كل منها شيطانا يدعو اليها ، ثم قرأ قول الله سبحانه **« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »**(٥) .

وثانيها : ان تغفل عن هذا الهدف بعد تحديده ، وتستمر فى الغفلة او تتلكأ فى الطريق .... ولا تصل .

وثالثها : ان تسمح لشياطين الانس والجن ان يجروك الى التية ، وان يفتحوا لك ابواب الشر ، وما أكثر هذه الأبواب واشد التشابك والتداخل بينها ، كل باب منها يؤدى الى ما بعده فى سلسلة لا تنتهى الا الى الجحيم ، وهى أبواب مزخرفة مزدانه، ولكن زخرفها زيف وزينتها خداع ، ومع ذلك فهى محببه الى كثير من النفوس بحيث يصعب على من جذبتهم واحتوتهم ان يخلصوا منها نجيا ، او يخرجوا منها سالمين ، انها تحطم ارادتهم وتضعف قدرتهم على المقاومة ، فلا يستطيعون منها فكاكا ، بل انهم كلما تنبهوا الى ما وصلوا اليه من بعد عن الهدف وانحراف عن الطريق ، وهموا بالخروج مما هم فيه ، شحذ الشيطان اسلحة له جديدة ، وزين لهم سوء اعمالهم ، واستعان عليهم بما فى انفسهم من ضعف وما فى جعبته من اغراء ، حتى يجذبهم لاغراضه ، فيصبحوا بعد ذلك من جنده الخاضعين له تماما ، يتعصبون له ، ويعتنقون مبادئه ، وقد يتفوقون عليه فى الاغراء بالشر ، وهو سعيد بتفوقهم عليه ، فهذا بالضبط هو ما يريده .. وكيف يغضب من تفوقهم وقد حققوا له اغراضه ، وصار كل منهم عدو نفسه ، وعدو الانسانية ، وهو من فرط غفلته يفخر بذلك ؟ ولعلك سمعت ما يقوله مخبول منهم :

---

(٥) الآية رقم ١٥٣ من سورة الانعام .

وكنت فتى من جنــد ابليس فارتقى
بى الحال حتى صــار ابليس من جندى
ولو عشت حتى مــات احــدث بعده
دقــائق شر ليس يحــدثها بعــدى

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

انى اراك ارجح عقــلا وابعد نظــرا من ان تتوهم أن فى استطاعتك الذهاب الى الجحيم والعودة فى ســلام ، وأنت أرجــح عقلا وابعد نظرا من ان تشغلك التوافه عن الهدف الاسمى .. فاذا عرفت هــدفك فابدأ بلا تردد فى الطريق اليه ، لا تســمح للمشاغل الصغيرة ان تناوشك ، أن تتجاذبك ، أن تبعد بك عن الهدف ، ان رسالتك اسمى رسالة ، ان غايتك أنبل غاية ... أن تكون نافعــا لنفســك وللناس ، مفتاحا للخير ، مغلاقا للشــر ، ان تكون عطــرا فى المجــالس ، وبلســما للجراح ، وغوثــا للملهوف ... أن تركز على هذا الهدف .. وان تصل .

انك فى الحياة قدوة ، لأنك تحمل أشرف الأسماء ، تحمل اسم الاسلام ، وترفع اسمى راية ، راية الاســلام ، وتسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على على ما ينفعك ..) اياك أن يتطرق الى ذهنك لحظة ان قوله صلى الله عليه وسلم (احرص على ما ينفعك) دعوة الى الأنانية ، حاشــا لله (احرص على ما ينفعك) لأنك مؤمن ، واذا حرص المؤمــن على ما ينفعــه فلابــد أن يعــود نفعــه على من حولــه ، أن المؤمن ينشر عطر الايمان أينما سار ، وحيثما حل ، وكما أن النفس الأمارة بالسوء لا يتوقف اثرها على أن يشقى صاحبها نفسه ، وانما يمتد الشقاء ليشــمل من حوله ، وقد يمتــد اكثر واكثر ،

فكذلك المؤمن حينما يحرص على ما ينفعه ، ويسعى دائما لتحقيق هدفه ، وهو هدف نبيل بلا شك ، يمتد نفعه الى من حوله ، وقد يمتد اكثر واكثر .

فاذا قرأت قول النبى صلى الله عليه وسلم (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فاعلم انها دعوة الى التركيز ، والى النجاح ، والى السعادة ، لأنك حينما تترك ما لا يعنيك سوف تركز على ما يعنيك ، ولكنها مع ذلك دعوة بعيدة كل البعد عن الأنانية ، لأن اهتمامك بمجتمعك الاسلامى هو من صميم ما يعنيك ، فأنت تعرف انه (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) فأمر المسلمين يعنيك قطعا ، وليس من حسن الاسلام ان تتخلى عن هذا الأمر ، ولكن من حسن الاسلام ان تترك ما لا يعنيك من توافه الأمور ، ومن الفضول الذى يزعج الناس وينفرهم منك ومن فضولك ، فقد حدث مرة فى قطار ، أن كان احد المسافرين يقرأ مذكراته الخاصة ، ولاحظ ان الراكب الذى يجلس بجواره يتطلع الى ما فى مذكراته ويكاد يقرأ معه كل سطورها ، فأزعجه ذلك ، واراد ان يعطى لجاره الفضولى درسا فى الادب ، فامسك بالقلم وكتب فى هامش المذكرة (ان هذا الفضولى الذى بجانبى يمد عينيه ليقرأ مذكراتى الخاصة ، محاولا أن يكشف أسرارى ، ويتجسس على ...) فصاح الراكب الفضولى انا لم افعل ذلك ، ولم اقرأ شيئا من مذكراتك ، فلم تكتب عنى ما تكتب ؟ وابتسم صاحب المذكرات ، وقال لصاحبه : عفوا يا صديقى ، هل كتبت عنك شيئا ؟ معذرة .. وخجل الفضولى ، ولعله لا ينسى هذا الدرس العظيم .

ان هذه الآداب ليست وليدة الحضارة العصرية ، ان صاحب الرسالة الانسانية العظيمة ، محمدا صلى الله عليه وسلم

يقونها لى ولك وللنـــاس جميعا (من حسن اســلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

وحتى ما يعتبره اكثر النـــاس جديدا فى الهيئات والشركات وفى المصانع والمصالح والادارات ، ويسمونه « التخطيط والمتابعة » للتركيز على تحقيق الانتاج المستهدف ، ومتابعة الخطة ... الى غير ذلك مما يقال ، ليس قديما مسبوقا فحسب بل أن محمدا صلى الله عليه وسلم وضـــع اساسه من الف واربعمائة سنة لا على مستوى الحكومات والهيئات فقط ، وانما على مستوى كل فرد بعينه ، صحيح انه لم يطلق عليـــه هـــذا الاســـم (التخطيط والمتابعة) وانما كان التطبيق عنده اهم من الاسماء والشعارات ، ماذا قال صلى الله عليه وسلم (اذا هممت بأمر فأنظر عاقبته ، فان كان رشـــدا فامضـــه ، وان كان غيا فاجتنبه) فانه بذلك يضع أساسا للتخطيط لا فى برامج الهيئـــات والمؤسسات فحسب ، ولكن فى حياة كل انسان على حده ..

ومما لاشك فيه انه طبق ذلك على نفسه ، وان المسلمين اقتدوا به ، فبلغوا ما بلغوا من الســـعادة ونشروا ما نشروا من الحضـــارة .

واذا كان من المأثورات المعروفة فى حياة المسلمين ما يحفظونه جميعا (حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل ان توزن عليكم) فانهم بذلك يكونون قد عرفوا المتابعة ومحاسبة النفس ، لا فى نهاية كل عام ، ولا فى ختـــام كل شهر ، بل فى نهاية كل يوم ، وقبل أن يسلم الواحد منهم نفســـه الى النوم ، كان يسأل نفسه عما فعله فى يومه ، ماذا قـــدم ، وماذا اخر ؟ ماذا أنجز وفيم قصر ؟ بل أن كثيرا منهم كان لا ينتظر المساء ليحاسب

نفسه كل مساء ، وانما كان يتابع أعماله لحظة بلحظة ، يحاسب نفسه .. فاذا وجدها قد أخطأت بادر الى اصلاح الخطأ ما استطاع ، وان لم يستطع اصلاحه لجأ الى الله يسأله المتاب ، واتبع السيئة بحسنة تمحوها ، لينام بعد ذلك قرير العين مرتاح الضمير ، انه لم يضع يومه سدى ، ولم يخسر من عمره يوما دون أن يعوضه بعلم اكتسبه ، أو خير قدمه ، او سعادة حققها لنفسه ولغيره ، فاقترب من الهدف خطوة ، او على الأقل تأكد من ثبوت قدميه على الطريق ، طريق السعادة والسعداء ... لم تزل قدمه ... ولم يضع منه الطريق .

الفصل العاشر

الحرية

كم هى كثيرة تلك القيود التى يصنعها الانسان لنفسه ، او يصنعها له غيره ؟ وكم هى بغيضة تلك المراقيل التى يضعها الناس والابالسة فى طريق الحرية ؟ ! وكم هى ثقيلة تلك الاغلال التى يحملها الانسان الظلوم لنفسه ، الجهول بما يسعده .. ! ولعل هذا التيار المضاد للفطرة السليمة هو الذى جعل الشاعر العربى الكبير أحمد بن الحسين(١) يتبرم بالحياة وبالناس ويصيح فى سمع الزمان :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه
وان سر بعضهم أحيانا
كلما أنبت الزمان قناة(٢)
ركب المرء فى القناة سنانا

وقد يلتقى هذا البيت الأخير مع فلسفة شاعر آخر لا يشكو الزمان ، وانما يركز شكواه فى أهل الزمان :

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

---

(١) ابو الطيب المتنبى ·
(٢) لطعن اخيه الانسان ·

ومن تلك العيوب المتفشية فى الناس غرامهم بالقيود والاغلال يكبل بها بعضهم بعضا ، يضعون القواعد من عند انفسهم ويلزمون الناس بها كأنها تنزيل من التنزيل ، لم ينتفعوا بما درسوه عن المجتمعات البائدة ، لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يعبدونها ... !

واذكر اننى منذ سنوات التقيت بمجموعة من العاملين بالفن الاذاعى فى احدى العواصم الأوروبية ، وتحدث احدهم عن الحرية ، فقال من بين ما قال : انه يعتقد ان القيود فى الاسلام تكبل الناس ، وتفرض على المرأة بالذات نوعا قاسيا من الأغلال ، وقد حاول بعض الحاضرين ان يلفته الى وجودى ولكنه تمادى فى حديثه باسم الحرية ، انه يقول ما يعتقد ... وسألت ذلك الشقى عن ما يعنيه بالحرية ، فاحتمى بما وضعوه من تعريف أوروبى لها ... وفوجىء القوم بعربى مسلم يفند لهم التعريف الأوربى للحرية ، وصمتوا أول الأمر ، كأن على رؤوسهم الطير ، ومما لاشك فيه انك سمعت هذا التعريف ، وقد تكون متأثرا بما قاموا به من دعاية له ، فاعتبرنه من المسلمات ، ولم تمعن النظر فيه ، ولم تكتشف ما فيه من ثغرات .

الحرية عندهم أن تفعل ما تشاء .. دون أن تتعرض لحرية الآخرين .

يا سبحان الله ! انها حضارة تبيح الانتحار ، تبيح للانسان ان يقتل نفسه قتلا ادبيا أو قتلا حقيقيا ، ما دام لا يتعرض لحرية الآخرين ، انها حضارة تبيح الفساد بحكم هذا التعريف الجامع المانع .. ولست أدرى ماذا يجمع ؟ وماذا يمنع ؟ انه

لا يمنع الخمر ما دام شاربها لا يتعرض لحرية الآخرين ، ولا يمنع العلاقات الآثمة ، ما دامت خالية من عنصر الاغتصاب ، ولا يمنع بعد الانتحار الأدبى المتمثل فى هذا الفساد لمن يتمتع بهذه الحرية ، أن يضع نهـاية لحياته بنفســه ، فينتحر فعلا اذا أراد ، لأنه بانتحاره لا يتعرض لحرية الآخرين .

وكان لابد بعد أن كشفت لهــؤلاء الأوروبيين ان تعريفــهم للحرية غير جامع ولا مانع ، وطالبتهم بأن يتحرروا من هذا التعريف للحريــة ، كان لابد ان اعرض مفهوم الحريــة فى الاســلام ، وقسمتها الى ثلاثة أقسام رئيسية :

أولها : تحرير الانسان من العبودية لغير الله ، فقد كانت اول صيحة للحرية الحقيقية فى هــذه الأرض صيحة الاســلام المدوية « لا آله الا الله » تلك هى كلمة الحرية ، وكلمة الشجاعة والبطولة ، انها كلمة التوحيد ، وكلمة الحياة .

انت حر لأنك تحررت من الخضــوع لأصــنام الحجــر واصــنام البشر ، فليس هناك آله فى الأرض ولا فى الســماء الا خالق الأرض والسماء ، وانت شــجاع لأنه لا آلة الا الله ، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك درهما ، ولا من اجلك لحظة ، فممن تخــاف ؟ انت بطل مزود بالشجاعة الأدبيــة والعماية لأنك لا تخاف أحــدا ولا تخاف أبدا ، وكيف تخــاف ومعك الله ؟ كيف تخاف وانت لا تعصــاه ؟ كيف تخاف من احد وانت مؤمن بأنه لا آله الا الله ؟ !

وثانيها : تحرير الانسان من الخضــوع لأهوائه ، ونزواته، وشهواته **((ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله))**(٣) .

---

(٣) الآية رقم ٥٠ من سورة القصص .

انكم تتنادون بألقاب السيادة ، وكيف يمكن أن يكون الانسان سيدا وهو عبد لاهوائه ؟ كيف يمكن أن يكون سيدا وقد استعبدته نفسه ؟ ومعروف أن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته ذل ، ان الانسان الذى طغت عليه شهواته بحيث تقوده كيف تشاء ، خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، لأنه خسر نفسه ، انه يناصر الباطل ما دام هواه مع الباطل « **ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** »(٤) .

قل لى بربك : لم يظلم الظالم ويعتدى المعتدى ؟ انه يتبع هواه .

لم يفسد المفسد ، ويفجر الفاجر ؟ انه يتبع هواه .

لم ينقلب الكبار الى طغاة ومجرمى حرب ؟ انهم اتبعوا أهواءهم ، انهم عبيد .. عبيد للشهوات والنزوات والأهواء الطائشة « **بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم** »(٥) ظنوا أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما تمليه عليهم أهواؤهم من أوهام السيطرة على العالم ، واستعباد أهل الأرض ، وخابوا ... لأنهم لا يهتدون بدين ولا علم « **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** »(٦) .

وأنتم أيها الأوربيون بلغتم من التقدم ما بلغتم « **فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا** »(٧) .

---

(٤) الآية رقم ٧١ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية رقم ٢٩ من سورة الروم .

(٦) الآية رقم ٢٣ من سورة النجم .

(٧) الآية رقم ١٣٥ من سورة النساء ، ومعناها فلا تتبعوا الهوى الذى يمنعكم أن تعدلوا .

وشعرت أن بعضهم بدا يتعاطف مع هذه الحرية النظيفة ، فاكملت حديثي .

وثالث هـــذه المفاهيم الأساســية للحرية فى الاســلام :
التحرر من الخضــــوع للتقاليد البالية ، والنظريــات المضللة والتعريفات الناقصة التى يقدسها الناس لمجرد انها موروثة عن الآباء .. وقد كانت حملة الاسلام مركزة على هؤلاء الذين تجمدوا عندما ورثوا من التقاليد ، وتحجروا عندما عرفــوا من آبائهــم واجدادهم ((**واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان آباءهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون**))(٨) ان كثيرا من النـــاس فى أنحـــاء الأرض لا يزالون عبيدا لمـــا ورثوا عن آبائهم واجدادهم من أفكار منحرفة اثبت العلم بطـلانها ، وهم مـــع ذلك يتعصــبون لهـــا ويســـعون لنشرها ((**وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قـــال مترفوها ، انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولوا جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالــوا انا بمــا ارســلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبـــة المكذبين**))(٩) .

وفى ظل هــذه الحريــات العامة كانت حرية المرأة فى الاسلام المثل الفريد فى الحريـــة المنضبطة ، ولا تظنوا انه من الخـــلط الساذج ما يطلق على العفيفة فى العالم الاســـلامى انها امرأة حرة ، انه ربط بين العفة والحرية مقصود ، له معناه ، وله مغزاه ، فان المرأة التى تتحصن بالعفة هى امرأة حرة ، تحررت من سيطرة الشهوات عليها ، هى سيدة ، سيدة نفسها ، فليست

---

(٨) الآية رقم ١٠٤ من سورة المائدة .

(٩) الآيات من ٢٢ الى ٢٥ من سورة الزخرف .

مستعبدة لهذه النفس ، انها تحررت من العبودية للأهواء الطائشة والنزوات المدمرة ، والشهوات البهيمية ، انها تمارس حريتهـا في حدود العفة والأدب والكمال الانسانى ، أما اذا انطلقت المرأة وراء أهوائها تفعل ما تمليه عليها نزواتها ، فذلك هو التسيب ، وليس من الحرية الاسلامية في شيء ، وذلك هو الدمـار الذى نشقى به البشرية ، وان كان لا يتعرض لحرية الآخرين(١٠) .

.. هل رأيت يا أخى كيف يستطيع الشيطان أن يزين للنـاس الفساد ، ويدفعهم الى الشقاء باسم الحرية البعيدة عن الضوابط **« ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شـيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون »**(١١) .

ومع أن القرآن الكريم قد حذرنا اشد التحذير وأقواه من أحابيل الشـيطان ، فان كثيرا من النـاس لا يزالون خاضعين لأمره ، منفذين لتخطيطـه ، ومن ابتعد عن الايمـان فلابد أن يتلقفه الشيطان ، الا تذكر قول ابراهيم لأبيـه : **« يا أبت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا »**(١٢)

---

(١٠) لا ازال اذكر هذا اللقاء كانه وقع بالأمس ، واذكر ان شابا من الحاضرين اراد ان يغير موضوع الحديث فسالنى سؤالا يكشف عن ضحالة ما يعرفه الناس هناك عن الاسلام ، قال : هل ترجمتم القران الى اللغة العربية ؟ فاجبته فى هدوء : ومن اية لغة نترجمه الى العربية ؟ فقال : من الاصل التركى طبعا ، لقد ظن ان الدولة العثمانية هى أصل الاسلام ، وكان من السهل ان ارده الى الصواب ، وابين له ان القران الكريم لا يسمى قرانا الا فى لغته العربية ، ومهما ترجمت معانيه الى اية لغة فانه لا يسمى قرانا ، وانما يسمى ترجمة لمعانى القرآن .

(١١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزخرف .

(١٢) الآية رقم ٤٥ من سورة مريم .

الا تذكر قول الحق جل جلاله ((**يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين اولياء الذين لا يؤمنون**))(١٣) ومما لاشك فيه أننا متفقون على ان الحرية من أهم عناصر السعادة ، ولكننا نختلف في مفهوم الحرية .

ان من يرى أن الحرية تكون بلا حدود يقع فى الفخ ، ولا يتبين ذلك الا بعد ان يكون قد أصبح عبدا للشيطان، يقوده حيث يشاء ، عبدا للشهوات والأهواء ، ضحية لبعض الأفكار الضالة المضلة ، اسيرا للعادات المتحكمة فى حياته .. لقد فقد حريته تماما باسم الحرية المطلقة .

اما الحرية التى يسعد بها صاحبها حقا فهى كما ذكرنا ، فى التحرر من عبادة غير الله ، وفى التحرر من سيطرة الأهواء والشهوات ، وفى التحرر من سلطان التقاليد البالية وسيطرة العادات المتحجرة .. ففى ظل التحرر من عبادة غير الله يقضى على دكتاتورية الحاكم ، وكهنوت رجال الدين ، بل انه ليس فى الاسلام ما يسمى برجال الدين ، كل مسلم من حقه ان يتصل بربه فى صلاة خاشعة ، وان يقرأ كتاب ربه فيفهم عنه ويقرر لنفسه من خلال ما فهم بنفسه ، او بالاستعانة بأهل العلم ، فعلماء الدين فى الاسلام ليس لهم سلطان على الناس ، وانما هم علماء يدعون الى الله ، ويرشدون من يلجأ اليهم ليسالهم فى امر يستطيع ان يفهمه بنفسه .

وكما حرر الاسلام ابناءه مما كان يدعيه الكهنة لأنفسهم

---

(١٣) الاية رقم ٢٧ من سورة الاعراف .

من وساطة بين الله وبين العباد ، حرر كل المواطنين من دكتاتورية الحاكم اذا سولت له نفسه أن ينتقص من حريتهم ، وليست قصة القبطى فى مصر وابن عمرو بن العاص التى حسمها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة ، بغائبة عن الاذهان ، فقد غضب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما تبين له أن ابن الوالى فى مصر ضرب احد ابنائها قائلا (خذها وانا ابن الأكرمين) ولا زالت صيحة ابن الخطاب تدوى فى سمع الزمان (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) يا سبحان الله ! ليست الحرية فى الاسلام منحة يتفضل بها حاكم على شعبه ، انها حق الانسان بحكم ولادته انسانا (وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وفى ظل التحرر من سيطرة الأهـــواء والشهوات يصـــون الانسان نفسه عما يدنسها ، ويعيش آمنا من العثرات ، ومن السقوط فى الهاويـــة .

وفى ظل التحرر من التقاليد البالية ينطـــلق الفكر دون قيد الا قيد العقل الذى يلتقى مع شرع الله فيخضـــع كل النظريات والأفكار الموروثة لسلطان العقل وميزان الدين ..

ليس الاسلام اذن هو الذى يقيد الانسان ويعوق انطلاقه ، ليس الاسلام هو الذى يكبل الانسان ويضع فى طريقه العراقيل ، بل انه جاء ليطـــلق ملكات الانســـان ويفك ما كانت ترســـف فيـــه الانسانية من قيود ، وينص القرآن الكريم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أرسله ربه للنـــاس « **يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضـــع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم** »(١٤) .

---

(١٤) الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف .

لقد وضع الاسلام اذن عن الناس اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، ان الاسلام يكره القيود والسلاسل ويمقت الاغلال والاصفاد ، ويجعلها عقوبة لمن تهاون فى حريته واسلم قيادة للشيطان ، اما عباد الله السعداء فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ان القيود فى الاسلام ملعونة لا تطوق الى الملاعين ، والملعون هو المطرود من رحمة الله ، ومن الكلمات التى تدور على السنة المسلمين تعرف كيف يكرهون القيود (قيد الحديد عسر ، وقيد الحرير لا ينكسر ، لعن الله القيد كله) .. كما ان هذا البيت الساخر الذى يردده طلاب العلم فى المعاهد الاسلامية تصويرا لعجز مسلوب الحرية ، كيف يكون أهلا للتكليف والمساءلة ، يبين مدى تقديس الاسلام للحرية :

القاه فى اليم مكتوفا وقال له
ايـاك ايـاك ان تبتل بالمـاء !

ومن المؤكد انك تعرف ان الاسلام جعل الحرية شرطا اساسيا فى التكليف والمسئولية ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (رفع عن امتى الخطا والنسيان ، وما استكرهوا عليه) فالمكره فى منطق الاسلام لا يحاسب ، ولا اظن انى فى حاجة الى التأكيد بأن الاسلام يمنع الاكراه ، حتى فى اهم ما يدعو اليه ، يمنع الاكراه فى الدين **((لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى))**(١٥) انه فى دعوته للناس الى الايمان يكتفى ببيان الرشد من الغى ، وبعد هذا البيان لا يجبر احدا على اعتناق الاسلام **((بل الانسان على نفسه بصيرة))**(١٦) .

---

(١٥) الاية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة .

(١٦) الاية رقم ١٤ من سورة القيامة .

وليس من حق الآباء ان يكرهوا ابناءهم على المعصية **« وان جاهــداك على ان تشرك بى ما ليس لك به عــلم ، فلا تطعهمــا »**(١٧) ولا من حق الأب أن يزوج ابنتــه لمن لا ترضاه ومعروفة قصة الفتاة التى جاءت الى رسول الله صلى الله عليــه وسلم تقول له : (ان أبى زوجنى من ابن اخيه ليرفع بى خسيسته) فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ان تجيز هــذا الزواج أو تبطله ، واكد لها أن اباها ليس له أن يرغمها على الزواج ممن لا ترضاه .. كما أن قصة الخنساء بنت خزام التى زوجها ابوها لرجل تكرهه فرد الرسول صلى الله عليه وسلم زواجها .. قصة معروفة ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك واضح وصريح (لا تزوج الايم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن) .

واباحة الطلاق بعد ذلك ايضــا ما هى الا استجابة لنداء الحرية ، فليس الزواج فى الاســلام قيدا لا يمكن الفكاك منه مهما ثبت فشله وتأكد شقاء الزوجين به ، بل ان اسم الطــلاق نفسه يدل على أنه باب للحرية ، ولكنها الحرية المتوازنة التى تســد ابواب الشقاء وتفتح ابواب الحياة السعيدة **« فامساك بمعروف او تسريح باحسان »**(١٨) ان العلاقة الزوجيــة يحوطها المعروف والاحسان ، عند استمرار العشرة بالمعروف ، وذلك هو الأصل ، وعند الفراق بالاحســان وذلك هو الاستثناء للضرورة حينما يثبت فشل الحياة الزوجية **« وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته »**(١٩) .

وكما أن للزوج الحق فى ايقاع الطــلاق اذا كان النفور من جانبــه ، ورأى أن استمرار الحيــاة الزوجية معنــاه استمرار

---

(١٧)

(١٨) الاية رقم ٢٢٩ من سورة البقرة .

(١٩) الاية رقم ١٣٠ من سورة النساء .

الشتاء ، فان للزوجة ايضـــا طلب الطلاق اذا رأت ان استمرار الحياة الزوجية ينغص حياتها ويحملها ما لا تطيق .. هذا فضـــلا عن ان للزوجين المنفصلين ان يعودا للزواج مرة ومرة بعد التجربة الاولى والثانية . انها الحرية المنضبطة اذن ، الحرية التى ترعى حقوق الزوجين والأولاد وسعادة الزوجين والأولاد .

ويتضح من هـــذا كله ان الاسلام يحرر الناس من الضغوط النفسية والاجتماعية التى تشتقيهم ، ويكفل الحرية الكاملة لكل من الرجل والمرأة فى اختيـــار شريك الحياة ، وفى استمرار العلاقـــة بعد التجربة أو انهائها ، كما يكفل الحـــرية الكاملة للانســـان فى اختيار ما يسعده من علم ، وما يناسبه من عمل ، وما يراه موافقا له من اتجـــاه فى الحياة ، وذلك كله فى حدود الاطار العام الذى يحقق للبشرية الفاضلة ان تحيا سعيدة فى دنياها ، وتلقى جزاء ذلك سعادة ابدية فى أخراها .

واستأذنك فى النهاية ان اهمس فى اذنك ان الانسان لا يكون حرا اذا كان يطلب الحرية لنفسه ويأباها لغيره .

انه ان فعل ذلك مريض يحتاج الى عـــلاج .. هل تحس بالمتعة والسعادة فى قصر منيف يطل على المقابر ؟

فـــلا نـــزلت عـــلى ولا بـــأرضى
سحـــائب ليس تنظيـــم البـــلادا

الفصل الحادى عشر

والأمل دائما

اعرف كثيرا من الناس حققوا كل ما كانت تصبو اليه نفوسهم ، بل واعرف كثيرا من بلغوا اكثر مما كانت تمتد اليه آمالهم ، لأن آمالهم كانت متواضعة اول الأمر ، فلما تحققت اعتبروها مرحلة اولى ، وامتد طموحهم الى قمم اعلى ، ولعلك تسمع عن نظرية فى الاقتصاد تقول (كلما حقق الانسان حاجة من حاجاته . . . ظهرت له حاجة اخرى اكثر الحاحا) ولكن هذه النظرية لم تظهر فى الغرب الا فى العصر الحديث ، بينما نعرف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اربعة عشر قرنا كان ينبه الناس الى هذه الطبيعة البشرية بقوله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى ثالثا) .

وقد حدثتنى نفسى مرة ، وانا استاذ باحدى الجامعات فى اوروبا ، اننى بلغت منتهى آمالى ومع ذلك لا استطيع التوقف ، فسألت نفسى ما هو الهدف بعد هذه المرحلة ، ؟ ولماذا اسعى واجد ولا اتوقف ؟ فاذا الجواب ياتينى واضحا وبلا تردد : الهدف النهائى هو الجنة ، هو ابتغاء مرضاة الله ، ونظمت فى ذلك ابياتا بدأتها بهذين البيتين :

دعانى طموحى للمعالى وعندما
بلغت ذراها طال شوقى لغيرها
لما عند ربى من نعيم وجنة
حنينى اليها ظلها وعبيرها

ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بلا أمل ، قد تتغير الآمال وتختلف حسب مراحل العمر وحسب البيئة والثقافة وظروف الحياة ، ولكن الطموح لا يتوقف أبدا ، وقد يحلو لبعض الزهاد ان يعتبر ذلك من آفات الانسان ، ولكنا نراه طبيعة من طبائع الناس يمكن ان تنقلب عند بعضهم الى آفة مدمرة ، وطمع قاتل ، وتنقلب عند الآخرين الى رغبات خيرة ، وطموح محمود . ودافع قوى الى العلم النافع والعمل الصالح والفوز العظيم .

والنفس من خيرها فى خير عافية
والنفس من شرها فى مرتع وخم

فبينما يحاول الزهاد قمع آمالهم ويتغنون كثيرا بقول الشاعر :

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

ويرون الطموح آفة ، وكأن الطموح لا يكون الا ماديا بحتا ، فان طموحنا يمتد ويمتد ويرقى ويرقى ليصل الى رضوان الله ، لا تعجب لهذا الخلاف ، فسوف تقرأ فى الفصل القادم ان شاء الله عن التوازن الذى يضبط هذا كله .

ولكن قل لى بربك ، هل تظن أن الانسان الذى حقق كل اماله ، لم تصادفه عقبات فى الطريق ، لم يفشل مرة فى تحقيق هدف من اهدافه ؟ أن هذا هو المحال بعينه ، فالطريق الى النجاح ملىء بالعقبات ، قد يفشل الانسان مرة ومرة ، ولكنه مع ذلك مثابر ، عينه على الهدف ، يضمد الجراح كل مرة ، ويقاوم اليأس ويدفعه الأمل من جديد .

قد يفقد الانسان ماله كله ، وحينئذ يكون قد فقد شيئا غاليا ، ولكن اذا فقد صحته فقد فقد شيئا اغلى ، اما اذا فقد الأمل فقد فقد كل شيء . بالأمل تبدأ من جديد وقد يعود اليك كل ما فقدته او اكثر .

هل تظن ان العظماء لم يفقدوا فى طريقهم الى المعالى كثيرا من الأمور الغالية ، هل تعرف كيف كان الطريق الى فتح مكة المكرمة ؟ لقد كانت هجرتان ، احداهما الى الحبشة والثانية الى المدينة ، ثم انتصر الحق فى بدر ، ولكن المسلمين ذاقوا مرارة الهزيمة فى احد ، واختار الله منهم شهداء ، وحوصروا بعد ذلك فى غزوة الخندق ، وهموا فى العام السادس للهجرة ان يدخلوا مكة معتمرين ، ولكنهم رجعوا بصلح الحديبية دون ان يدخلوا مكة .. ولم يفقدوا الأمل ابدا ، ولم يتطرق اليأس الى نفوسهم لحظة ، وكيف ييأس المؤمن ؟ « **انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** »(1) .

وفى العام الثامن للهجرة دخلوا مكة ظافرين منتصرين ، وراوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطم الأصنام وهو يقول كما امره ربه « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** »(2) .

ومن المؤكد انك تعرف ان التغلب على الفشل ، وتحويله الى نجاح يسبب للانسان اقصى درجات السعادة ، وان تكرار ذلك — كلما نهض الانسان من عثرته وبدأ التغلب على الصعاب من جديد — هو نسيج السعادة فى هذه الحياة .

---

(1) الاية رقم 87 من سورة يوسف .

(2) الاية رقم 81 من سورة الاسراء .

وهل يتم التغلب على الصعاب وتحويل الفشل الى نجاح الا بالآمال العذبة تملأ نفسك ، والثقة بالله تشرح صدرك ؟

ان الأمل فى زوال الغمة يعين على السعى لازالتها ، والأمل فى الانتصار على الشرور يمد صاحبه بالطاقة التى تدفعه للانتصار ، والسعادة التى يحققها الانتصار تمد الانسان بالقوة وتثير فى نفسه موجات متلاحقة من الحماس ، لها دورها فى تحقيق الأمل وتذوق السعادة من جديد ، سعادة الوصول الى الهدف .

والايمان هو العامل الحاسم فى ذلك كله ، الايمان الصادق يجعلك على ثقة دائما من التغلب على الصعاب ، ولم لا تتغلب عليها ؟ الست تعمل ابتغاء مرضاة الله ؟ اليست هذه الصعاب من عمل الشيطان وأولياء الشيطان .. ومن كانت فى الله همته ، كان حقا على الله رعايته ، فما دام الهدف نبيلا ، وما دامت الغاية التى ترجوها من جهدك وجهادك غاية يرضى الله عنها ، فلتكن واثقا من النصر « **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد** »(٣) وعد صادق اكيد يمدك بالأمل ، ويملأ قلبك بالثقة ، ويطرد اليأس أن حاول اليأس أن يغزو قلبك أو يثبط هوتك .

ان المؤمن لا يصاب بالاحباط ابدا ، وانت تعرف ان اصابة الاحباط قاتلة ، وان ضربة اليأس قاصمة ، ولكن ذلك كله يتنافى مع الايمان ، فالمؤمن يعرف أن الحياة مليئة بالمشكلات والمآزق ، وهو يوطن نفسه على ذلك ، يعرف ان المتغيرات فى الحياة امر

---

(١) الآية رقم ٥١ من سورة غافر .

ليس فى قدرة الانسان اخضاعه أو السيطرة عليه ، ولذلك فهو يكيف حياته ليتخطى هـذه العقبات ، مع حرصـه الشديد على الا يسلك فى طريقه الى تحقيق اهدافه الا السلوك الصحيح ، ولا يلجـأ الا الى الوسائل المشروعة حتى لا يبعد عن الهدف ، سعادة الدنيا والآخرة .

وكلما ازداد المؤمن ايمانا ازداد ادراكه لطبيعة الحيـاة وازدادت ثقته فى الله .

وفى الحق ان الانسان يصـادف هذه المصاعب من مصدرين مختلفين ، وقد عرضنا حتى الآن للمصاعب التى تأته من خـارج نفسه ، لتلك المعوقات التى يصادفها فى العمل ، والتى يتفنن كثير من الناس فى وضعها امامه ، أو تلك التى يلقى بها القدر فى طريقه، فلا يتملكه اليأس ولا يصاب بالاحباط ، وانما يمده الأمل بالسلاح القوى الذى يتغلب به على تلك الصعاب ، أما النوع الآخر ، فهو ما يتورط فيه الأنسان بنفسه ، اخطاء يقع فيها ، ذنوب يرتكبها .. واظنك لا تستنكر أن يحدث هـذا ، فقد قرأت من قبل أن كل بنى آدم خطاء ، ونضيف الآن بقية هـذا الحديث الشريف ، فليس كل الخطائين فى نظر الاسلام سواء ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل بنى مدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون) اذن هناك فى الخطائين خير ، اذن هنـاك الأمل دائما ، الأمل فى التوبـة والتطهير من جديد ، والتوبة الخالصـة النصوح تغسل النفوس وتمحو الذنوب وتجدد الآمال .

ومما لاشك فيه انك جربت التغلب على الصعاب واجتياز العقبات التى يزرعها الناس فى طريقك أو تبذرها الحياة اشواكا فى الدروب ، ولكن هل جربت أن تلجـأ الى الله اذا وقعت فى ذنب من الذنوب ، تسأله الغفران ، وتستعينه على نظافـة النفس

وطهارة القلب ؟ جرب هذه ايضا ، جرب وانت واثق من الاستجابة **« وقال ربكم ادعونى استجيب لكم »**(٤) وبلب التوبة كما تعرف مفتوح ، بالليل والنهار مفتوح ، باب الأمل فى التطهر والتخلص من اسباب الشقاء على مصراعيه ، وربك يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، ومهما كانت ذنوبك من الكثرة حتى ولو كانت كزبد البحر ، فلا تيأس **« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم »**(٥) كما روت عائشة رضى الله عنها أن خبيث بن الحارث جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله انى رجل اقترف الذنوب كثيرا ، قال له عليه الصلاة والسلام : تب الى الله يا خبيث، قال يا رسول الله انى أتوب ثم اعود ، قال فكلما اذنبت فتب ، قال يا رسول الله اذن تكثر ذنوبى . . . قال عليه الصلاة والسلام : عفو الله اكبر من ذنوبك .

وانت ايضا يا اخى ، عفو الله اكبر من ذنوبك ، فلا تسمح لليأس ابدا أن يغزو قلبك ، وتوجه الى الله بالدعاء وانت واثق من الاستجابة :

يا رب أن عظمت ذنوبى كثرة   فلقد علمت بأن عفوك اعظم

---

(٤) الاية رقم ٦٠ من سورة غافر .

(٥) الاية رقم ٥٣ من سورة الزمر .

الفصل الثـــانى عشر

التـــوازن

من النظريات العلمية المعروفـــة ان كل فعل له رد فعل مساو له فى القوة مضـــاد له فى الاتجاه ، وانت تعلم ان الاسلام يحترم العلم ، كما تعلم اننا لا نعترف بدين ينكر العلم ، ولا بعلم ينكر الدين ، وبذلك نجنى فى سعادة ثمار الربط القوى بين الدين والعلم ، وثمار الاحترام المتبادل بين ما هو دين على الحقيقـــة ، وما هو علم على الحقيقة . من اجل ذلك لا نعجب اذا رأينـــا متطرفا يتعصب لجانب ويتحامل على آخر ، ونتساءل هل كان تعصبه رد فعل لتعصب وقع من الجانب الآخر بل ان العـــلم يجعلك لا تعجب اذا سمعت شاعرا كبيرا يؤيد اليوم رأيا ويفنده غدا ، ولا تعجب اذا رأيت بعض الناس يتحول فجأة من النقيض الى النقيض ، لا تعجب ... فانها دراســـات واقعية « **وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** »(1) .

ان هؤلاء المساكين تتقازعهم الضغوط المختلفة ، وتوقعهم ردود الافعال التى يتعرضون لها فى تناقضات غريبة ، فبينمـــا نجد الواحد منهم محبا للناس دائم الاختـــلاط بهم والتحرك بينهم ، مسرفا فى ذلك الاسراف كله ، اذا هو بعد صدمة عنيفة لقيهـــا ـــ بسبب هذا الاختلاط وذلك التحرك ـــ يؤثر العزلة ويكره الناس ويسرف فى ذلك الاسراف كله .. لقد اصيب المسكين بعقدة شديدة التعقيد ، سوف تظل سببا فى شقائه الى أمد بعيد .

---

(1) الاية رقم ١٠٣ من سورة يوسف .

ولا تعجب ايضا اذا سمعت نقاشا حادا بين رأسمالى يقدم صالح الفرد على صالح المجتمع ، وشيوعى يقدم صالح المجتمع على صالح الفرد ، أو خلافا شديدا بين محب للدنيا غافل عن الآخر ، ومنكب على العبادة منصرف عن الدنيا .

لا تعجب .. أن كلا منهم يفكر طبقا لما تعرض فى حياته من مشكلات ، أو ما ورثه عن آبائه ومجتمعه من عادات .

ولو أن جميع هؤلاء فطنوا الى التوازن بين هذه المتناقضات لعاشوا سعداء ، وتجنبوا كل أسباب التطرف والشقاء ، والمؤمن لا يعانى من العقد النفسية ابدا ، لأن ايمانه ينأى به عن الوقوع بين الضغوط المتعارضة ، لن يقع بين ثورة اهوائه وتأنيب ضميره ، لن يقع بين التمسك بالفضائل ونداء الحرية ، ان فى يده مفتاحا لكل هذه المشكلات ، ان الايمان يقدم له المفتاح ، ويهديه الى التوازن **((ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب))**(٢) لا يهدى الى مفتاح السعادة من هو مسرف ، لأن الاسلام يأمر بالعدل ، والاسراف بعيد كل البعد عن العدل ، والاسراف فى اى مجال من مجالات الحياة خروج عن حد الاعتدال ، والاعتدال نوع من العدل ، الاسراف تضخم فى جانب على حساب الجانب الآخر دائما .

أما ان المؤمن لا يقع بين ثورة أهوائه وتأنيب ضميره ، فلأن ايمانه قد حل هذه المشكلة ، لقد وحد ايمانه بين كل ملكاته فاصبح لا يعانى من الصراع الداخلى (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) فاذا كان هواك قد ارتقى فأصبح تبعا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يصطدم بالضمير ؟

---

(٢) الآية رقم ٢٨ من سورة غافر .

انك اصبحت محبا للفضائل ، تفضلها حبا لها ، لا لمجرد انك مأمور بها ، كارها للرذائل تتجنبها لانك تمقتها ، لا لمجرد انك منهى عنها ٠

واما انه لن يقع فى حيرة بين التمسك بالفضائل ونداء الحرية ، فلأن الحرية عنده كما بينا ليست أن يفعل ما يشاء بحيث لا يتعرض لحرية الآخرين ، ليست الحرية عنده انطلاقا بلا حدود ولا ضوابط ، وانما هى فى الاسلام حرية متوازنة منضبطة ، صحيح أن المتطرفين يخلطون بين الضبط والكبت ويقفون موقف العداء من الضبط على انه لا يختلف عندهم فى شىء عن الكبت ، ولكن ماذا تنتظر من المتطرفين الا أن يكون حكمهم متطرفا ، ولكيلا يجمح بنا القلم فى فصل يحمل عنوان التوازن ، فانى أوثر أن أضبطه فى امور ثلاثة :

اولها ــ التوازن فى الأمور الشخصية :

مما لا شك فيه أن النفس السوية مهيأة للسعادة أكثر من غيرها ، والنفس السوية هى المتوازنة التى استطاعت تحقيق العناية بالروح والجسد معا ، فلا تهمل الروح كل الاهمال موجهة عنايتها الى الجسد وحده ، ولا تترك العناية بالجسد والصحة بحجة ان الروح اولى بالرعاية ، فتهمل الناحية المادية اهمالا بشعا وتجرى وراء الروحانيات ، وتستغرق فى الشطحات والاوهام٠ السعادة الحقيقية فى التوازن بين مطالب الروح والجسد ، ومعاملتهما على أنهما وجهان لعملة واحدة « ان الاسلام دين التوحيد ، لا يسمح ابدا بصراع بين روح الانسان وجسده ، الانسان كيان واحد متكامل موحد(٣) ٠

---

(٣) اقرا فى هذا الموضوع حول شعار التوحيد فى حياة الفرد والمجتمع كتاب « كل مسلم » للمؤلف٠

وينتج عن هـذا التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد توازن آخر بين الدين الذى هو مطلب الروح وبين الهوى الذى هو مطلب الجسـد ، وليس معنى ذلك اننا نسـوى بين الدين والهوى ، ولكن معنـاه كما مر بك أن مفتـاح السعادة فى هـذا التوازن ، أن ترقى رغباتك واهواؤك فتصبح الفضيلة معشوقتك، ورضوان الله غايتك ، والسعادة فى الدارين جائزتك .

ولست ادرى لماذا يحاول كثير من الكتاب أن يصـوروا التقوى على انها نقيض السعادة ؟

هل تسعد النفس الطبيعية بالانحراف حقا ؟ انى أؤكد لك ان الانسـان الذى لم ينحرفه يجد سعادته كلها فى التقوى .

ومهما يكن من شىء فان كلمة التقوى كلمة جامعة للفضائل ، ومعروف أن هنـاك تعريفـا قديما للفضيلة بانها وسط بين رذيلتين فالجبن رذيلة وكذلك التهور ، أما التوازن بينهما فهو الشجاعة ، وهى الفضيلة ، وهكذا تلتقى الفضـائل كلها مـع التوازن ، كمـا تلتقى كلهـا مع التقوى ، وعند لقاء هـذه المعـانى لابد أن تولد السـعادة .

من ذا الذى يزعم أن الانفعال المندفع يسعد صاحبـه ، أو أن البرود الذى يقتل الاحسـاس يوفر لصاحبـه نوعـا من السعادة ؟ وهل انت مضطر ان تصدق هذا الشاعر الذى ضاق بفرط الحساسية وارهاف الشعور ، فكان رد الفعل عنيفا ، وكانت النتيجة هذا البيت الغريب :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر
تمشى الحـوادث عنه وهـو ملموم

انه يظن ان فقد الاحساس يمكن ان يجعله سعيدا .. انه يتمنى ان يكون حجرا من الاحجار لا يدرى ما يراد به ولا يشعر بما يصيبه من احداث الزمان ، ولعل له عذرا فيما وصل اليه من تطرفه ، ولكنه على كل حال ينسى ان البلادة تقتل فى الانسان مشاعره ، فلا ينتفع بالتجارب التى تمر به او يمر بها « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »(٤).

من قال ان سذاجة الاطفال تغنى من يقظة الراشدين ، او ان المكر السىء والخبث الخبيث يحقق للماكرين والخبثاء السعادة ؟ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كمثل أعلى للانسان يتبرأ من هذين الطرفين ، يتبرأ من السذاجة والخبث ، ويعلن براءته منهما على الناس ، (لست بالخب ، ولكن الخب لا يخدعنى) فهو اذ يتبرأ من المكر والخبث ، يؤكد أن الخبثاء لا يستطيعون ان يخدعوه .

ومن ذا الذى يؤثر صمت القبور أو يسعد بالضجيج العالى والصخب المستمر ، هل ترتاح لصحبة ثرثار لا يكف عن الحديث ، او لصحبة انسان صامت جامد متخشب أو متصنم ؟

من ذا الذى يستطيع ان يحيا فى ليل دائم أو نهار سرمدى ؟ من ذا الذى لا يحتاج فى حياته الى النور واحيانا الى الظلمة لتهدأ اعصابه وينام ؟

ليست السعادة ابدا فى الجد الصارم الذى لا يبتسم ، ولا فى الضحك الدائم الذى لا يكف .

---

٤) الاية رقم ١٠٥ من سورة يوسف .

لن تجد السعادة فى بهرج الزينة الفاقعة ولا فى أعمال النظافة والترتيب ، وانظر كيف استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا دخل عليه ثائر الشعر اشعث اغبر ، فقال عليه والسلام (الا يجد هذا ما يسكن به شعره ؟ !) ولم يجد ما يشبهه به غير الشيطان ، وبمناسبة هذا الشيطان نذكر تطرفا آخر شبه القرآن الكريم اصحابه بالشياطين وجعلهم اخوانهم **« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا »**(٥) بينما تصور الآيات الكريمة الشحيح البخيل بمن يجعل يده مغلولة الى عنقه ، انه لا يستطيع أن يحركها لاخراج درهم من جيبه ، بينما الثناء كله على المعتدلين **« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »** (٦) .

هل يحس احد بالبهجة وهو يموت جوعا ، أو يسعد وهو يعانى من التخمة ؟ (نحن قوم لا ناكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع) .

وهل يسعدك أن تكون خجولا يمنعك الخجل من قول الحق ودفع الباطل ؟ او أن تكون متبجحا يدعوك التبجح لانكار الحق والدفاع عن الباطل ؟ !

هل يأمرنا الدين ~~حقا بالمغالاة~~ فى التواضع حتى اذا ضربنا أحد على الخد الأيمن نشعر بالسعادة ونحن نقدم له الخد الأيسر ؟ أو يأمرنا بالكبرياء والصلف باسم العزة والكرامة ؟ « ولا تصعر

---

(٥) الاية رقم ٢٧ من سورة الاسراء

(٦) الاية رقم ٦٧ من سورة الفرقان

خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخــور))(٧) .

هل تشعر بالسعادة وانت منصرف الى الارض وعمارتها ؟ دون ان تتطلع الى السماء لحظــة ، كيف تسعد وقد قطعت صلتك بخالقك ورازقك ؟ ان السعيد هو من كان قلبه معلقا بالسماء وقدمه ثابتة فى الأرض ، وقد احسن العقلاء من قوم موسى اذ قالوا لقارون ((**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخــرة ولا تنس نصيبك من الدنيــا**)) (٨) .

وهل يسعد الرهبان حقــا بقتل الغريزة ؟ او ينعم المتشبهون بالفحول المتفرغون للعلاقات غير المشروعة ؟ ان الاســـلام ينهى من التبتل ((لا رهبانية فى الاسلام) ، وينهى عن الفحشاء ، ويدعو الى الزواج ، بل يدعوك الى جانب ذلك للاعتدال فى المشــاعر ، فلا تبالغ فى حب انسان الى درجة العبادة ، ولا فى كره آخر الى درجة الحقد والغيظ ، ويقول المثـل السائر (احب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ، وابغض بغيضك هــونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما) .

وليس الاعتدال مطلوبا فى حب الاشخاص لحسب ، بل فى حب الأحيــاء والأشــياء كذلك ، ((**لكيلا تاســوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**))(٩) انها دعــوة الى الاعتدال فى المشــاعر لا الى تبلد الاحساس ، دعوة الى التوازن لا الى التهاون .

---

(٧) الآية رقم ١٨ من سورة لقمان .

(٨) الآية رقم ٧٧ من سورة القصص .

(٩) الآية رقم ٢٣ من سورة الحديد .

وثانيها — التوازن فى محيط الاسرة :

هل يمنعك حبك لأولادك من تأديبهم ؟

وهل يليق بك أن تلين معهم فى موقف يتطلب الشدة ؟

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فاذا لم تعرف كيف تشتد فى غير عنف ، وكيف تلين فى غير ضعف ، ضاع أولادك بين الشدة العنيفة واللين الضعيف ، ولعلك تعرف أن ذلك يعتبر من أكبر الآثام (كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعول) كما يعتبر بابا من أبواب الشقاء لا يعرف أحد مداه ، ولا الى أى حد ينتهى .

واذا كنت تحب زوجتك الحب كله ، وأرجو أن تكون كذلك ، فلا تبالغ فى اظهار الحب ، وحتى اذا حدث العكس والعياذ بالله ، اذا حدث انك لا تحبها ، فلابد من ضبط النفس ، وعدم اظهار الكره أو ممارسة الظلم « **فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** »(١٠) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عائشة حبا تحدثت عنه الرواة ، لدرجة أن أحد الصحابة سأله مرة من أحب الناس اليه فقال عائشة ، فظهرت على وجه الصحابى مسحة من الحياء ، وقال يا رسول الله ما الى هذا قصدت ، وانما أردت أن أسأل من أحب الناس اليك من الرجال ، فقال أبوها ... ومع كل هذا الحب لم يمنعه ذلك من تأديبها واغضابها حينما

---

(١٠) الآية رقم ١٩ من سورة النساء .

اخرجتهــا الغيرة عما ينبغى لمثلها ، لمــا رات اهتمــامه بذكرى خديجة التى كانت قد ماتت منذ ســنين ، فقالت مستنكرة لهــذا الاهتمام (خديجــة ٠٠ خديجــة ٠٠ وهل كانت الا عجوزا عوضــك الله خيرا منها ؟) فردها عليه الصــلاة والسلام فى شىء من الشدة وقال : (لا والله ، ما رزقنى الله خيرا منها ، لقد آمنت بى حين كفر الناس ٠٠٠ ورزقنى الله منها الولد ولم يرزقنى من غيرها) ٠

فاذا احببت زوجتك كما ينبغى لك ان تحب ، فلا تسمح لهذا الحب ان ينسيك واجب الوفــاء نحو امك او ابيك ، نحو اختك او اخيك ، واذا احببت احد اولادك اكثر من اخوته فلا تفعل ما فعله يعقوب عليه السلام . ان ما حدث بين يوسف واخوته لم يكن الا بتقدير من الله لينشأ يوسف بعيدا عن البادية٠٠٠وليحدث ما حدث له فى مصر ((ان ربى لطيف لمــا يشاء))(١١) ولكن هذه المعجزات لا تتكرر ٠

ان التوازن بين العقل والعاطفة فى هــذه الحالة مطلوب ، كما ان التوازن بين القسوة والتهاون فى تربيــة الأولاد وغيرهم مطلوب ، ولا تعجب من لفظ القسوة فى مجــال التربية ، انهــا القسوة الرحيمة ، واعتقد ان هذا التعبير ماخوذ من قول الشاعر :

فقســا ليزدجروا ومن يــك حــازما

فليقس احيــانا عــلى من يرحــم

فكان هــذا الشاعر حسب علمى اول من مزج بين كلمــة القسوة وكلمة الرحمة ، ولمــا كانت القسوة نوعا من التطرف ،

---

(١١) الآية رقم ١٠٠ من سورة يوسف ٠

اما الرحمـــة فبعيدة كل البعد من التطرف ، فاننا لم نرد أن نبحث عن وسط بينهما بالتوازن ، فلجأنا الى هـــذا التعبير (القســـوة الرحيمـــة) .

ان التوازن ضرورى حتى فى بر الوالدين ، ان لك أن تبرهما غاية البر ، حتى لو كانا على غير دينك ، ولكن برك بهما وطاعتك لهما لا تصل الى حد ان تطيعهما فى معصية الخالق ، أن تطيعهما فى ظـــلم او جور ، أن تطيعهمـــا اذا أمـــراك أن تشرك بالله **« وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا »**(١٢) .

وتأكد ان ما تعودته فى الأسرة من وفاء يظهر فى بر الوالدين ؛ ومن توازن فى حب الزوجـــة ، ومن عطف وحزم فى تربية الأولاد ، سوف يكون له اثره فى توازن سلوكك فى المجتمع ، وسعادتك فى الحياة ، ولا تعبأ بما يقوله « دور كايم » من ان نظـــام الأسرة ليس نظاما فطريا ، انك لست مضطرا الى تصديق هذه النظريات غير المتوازنة ، لانك تريد ان تعيش سعيدا وان تنشر الســـعادة فى محيط أوسع . أن « دور كايم » يفكر تفكيرا عقليـــا بعيدا عن عاطفة الحب والود والسكينة النفسية ، انه غير متوازن .

ولعلك تلاحظ أن هذا الفصل من الكتـــاب يمكن ان يختلط بفصول الباب الثانى الخـــاص بسعادة المجتمع ولكننا مع ذلك حريصون على أن يظل حديثنا فيه عن سعادة الفرد فى ذات نفسه، وعن سعادته فى أسرته ومجتمعه ، لا عن سعادة الأسرة والمجتمع ، فلذلك باب خاص يعقب هذا الفصل ان شاء الله .

---

(١٢) الآية رقم ١٥ من سورة لقمان .

وثالثها ـ التوازن فى محيط العمل والمجتمع :

لعلك قد استمعت أو قرأت عن عالم اليوم انه قد فقد توازنه لما اصيب به من التضخم فى عقله والضمور فى قلبه ، وهو تعبير يراد به تصوير ما أحرزه العصر الحديث من تقدم فى شتى المجالات العلمية المادية ، وتأخر فى شتى المجالات الايمانية والروحية ، ولذلك فانك نادرا ما تجد من افراد هذا المجتمع من يشعر بالسعادة الحقة ، فالسعادة كما تعرف لابد لها من التوازن .

كما انه لابد للمجتمع من تحقيق التوازن ليسعد أفراده جميعا ، فلا يموت بعض الناس جوعا ويموت بعضهم الآخر من التخمة ، والمجتمع الاسلامى يعرف ذلك من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما جاع فقير الا ببطنة غنى) .

هل يسعد القادرون حقا وهم يظلمون الضعفاء ويختالون خلفهم فى الحياة ؟

أن مجتمعا يتبادل فيه الناس التظالم والتباغض والاحقاد ، ان مجتمعا يتساقط فيه الظلم من الاقوياء ويتصاعد فيه الحقد من الضعفاء ، لهو مجتمع مختل البناء ، متصدع العلاقات ، يشقى فيه الاقوياء والضعفاء جميعا (اللهم انى اعوذ بك من أن أظلم او اظلم) .

ومهما تطرف الشيوعيون فى العناية بصالح المجتمع والاطاحة بسعادة الأفراد وحقوق الأفراد ، وتطرف الرأسماليون فى الاهتمام بصالح الفرد وتقديمه دائما على صالح المجتمع ، فان الحق الذى ينشده العقلاء دائما ، والسعادة التى نطلبها للأفراد

فى كل مجتمع ، هى فى التوازن بين صالح الفرد وصالح المجتمع ، ولكن متى ؟ متى تثوب الانسانية الى رشدها ، وتعرف أن الشقاء يغزو قلوب الناس كلما اختل التوازن ، وأن السعادة تملأ القلوب كلما اعتدل الميزان وتعمق الايمان .

صحيح ان التطرف قد يكون رد فعل لتطرف فى الجانب الآخر ، وصحيح أن تاريخ الاسلام فيه أمثلة واضحة كل الوضوح لهذا النوع من التطرف ، فقد فتح الله على المسلمين الاقطار ، وكثرت الغنائم !! وزاد الترف زيادة لم تكن متوقعة ، وكان رد الفعل موجة من الزهد الذى تطرف أيضا فى اهمال الدنيا مقابل التطرف الماجن الذى انهمك فى البحث عن السعادة فى الترف المادى ، واخذ يلهث وراء الشهوات والأهواء الأرضية ، وحمل أبو نواس لواء الدعوة للمجون ، واضطر أبو العتاهية أن يحمل راية الزاهدين ، ولم يكن ظهور التصوف وانتشاره بعيدا عن هذه المعارك .

وليس معنى هذا أننا نوجد مبررا للتطرف ، ولكننا نشير الى بعض أسبابه ، ليسهل بعد ذلك علاجه ، واذا أردت أن تعرف المعنى الحقيقى للتطرف فلتنظر اليه فى مطبخ بيتك ٠٠٠ فلابد انك حاولت مرة طهى بعض الأطعمة ان كنت ممن يضطرون الى خدمة انفسهم ، أو رأيت زوجتك تشعل الموقد لهذا الغرض ان كنت مثلى ممن تخدمهم زوجاتهم .

هل رأيتها وهى تطفىء الموقد بمجرد نضج الطعام ؟ ان هذا هو التوازن .. ماذا لم تطفىء الموقد فى الوقت المناسب ، احترق الطعام والاناء ، وذلك هو التطرف ، انه يحرق ويدمر ، ولذلك

نستعيذ بالله منه ، وندعو لك باجتنابه ، وننبه الى خطورة نتائجه واسبابه « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » (١٣) .

وتاريخ البشرية كله موجات متلاحقة من التطرف والاعتدال ، كما انه موجات متلاحقة من الكفر والايمان ، فكم اندلعت فى جنبات الارض نيران التطـرف ((فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتـاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين اوتـوه من بعد ما جـاءتهم البينـات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحـق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم))(١٤) .

---

(١٣) الآية رقم ٢٤ من سورة الاحقاف .

(١٤) الآية رقم ٢١٣ من سورة البقرة .

الباب الثاني

سعادة المجتمع

ســعادة المجتمــع

هل جربت هذه المحاولة الصعبة ؟

هل جربت أن تعيش سعيدا في مجتمع غير سعيد ؟

ارجوك الا تنفعل ، انها ليست محاولة صعبة فحســب ، ولكنها فاشلة ايضا ، الا اذا كنت قد عقدت العزم على أن تكون من اصحاب الرســالات ، وأن تسعى الى تحويل هــذا المجتمع الشقى الى مجتمع سعيدا .

فاذا كنت قد عرفت في الباب الأول مقومات السعادة بالنسبة للافراد ، وهى المرحلة الأولى لبناء مجتمع سعيد ، فان المرحلة الثانية لا تقل اهمية عن تلك ؟ لان اللبنات المبعثرة ، مهما كانت قوية ومزودة بكل الطاقات ، لا تستطيع وحدها أن تقيم بناء ؟ لابد من الربط بينها بمواد التماسك ليقوم البناء ، وكذلك الأفراد الذين اعددناهم للســعادة في البــاب الأول ، ان لم يجيــدوا فن العلاقات ، وتربط بينهم المحبة والمودة والاخاء ، فلن يستطيعوا تكوين مجتمع سعيد ، لأنه لابد لاقامة المجتمع السعيد المترابط من افراد سعداء اقوياء ، يكون بعضهم لبعض كالبنيان يشد بعضه بعضا ، لابد ان يكونوا كالجســد الواحد اذا اشتكى منه عضــو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، اى بالتألم له ، والسهر الى جانبه حتى تزول اسباب شكواه .

هذا هو المجتمع القوى المتماسك السعيد ، الذى تستطيع ان تسعد بالعيش فيه ، ويسعد بانتمائك اليه .

هذا هو المجتمع السعيد فى محيط الأسرة أو العمل ، او فى محيط الأمة والشعب ، أو فى محيط الأسرة العالمية .

أما وقد سهلت لك المطلب فى الباب الأول ، وذللت لك المركب فى فصوله الاثنى عشر ، ووضعت يديك على ما يقدمه لك الاسلام من عناصر السعادة ، وحذرتك من أن تنسى انها سعادة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة ..... فلتشمر عن ساعد الجد ، ولترافقنى فى هذه الرحلة الممتعة ، ولتعيش سعيدا بين السعداء ، ولتنظر كيف يكون المجتمع السعيد ..

الفصل الأول

سـعادة الأسـرة

ولتكن بداية الرحلة مع النواة الأولى فى المجتمع ، مع الأسرة السعيدة ، فمن مجموع هـذه الأسر السعيدة ، يتكون المجتمـع السعيد ، وفى ظل هـذه الأسر السعيدة ، تنشأ الحياة العاطفية والخلقية والفكرية للنبت الجديد . . .

ويبدأ تكوين الأسرة بالزواج ، ولعـل «دوركايم » الـذى اعتبر نظـام الزواج مخالفا للفطرة ، لم يفطن الى السر الحقيقى للسعادة الزوجية ، لقد نظر الى الزواج على أنه وسيلة لحفظ النوع الانسـانى فحسب ، وفى الحق ان الزواج وسـيلة لحفظ النوع الانسانى ، ولكنه قبل ذلك وسيلة لاطمئنان النفس وهدوء القلب وراحـة الوجدان **((ومن آياته أن خـلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمـة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون))**(١) من أجل ذلك نجد الاسـلام ـ وهو كما عرفت دعوة الى السعادة ـ يدعو الى الزواج وتكوين الأسر ، ومن أجل ذلك نجد الأمة الاسلامية كلها تسمى حفل الزواج فرحا ، وتشجع هـذا الاتجاه بكل وسيلة .

ان الاسلام حينما يحرم العلاقات الجنسية وانجاب الذرية من غير طريق الزواج ، وينهى مع ذلك عن التبتل والرهبنة ،

---

(١) الآية رقم ٢١ من سورة الروم .

فانه يؤكد بهذا دعوته الى الزواج وتكوين الأسر الجديدة السعيدة، ويدفع الناس الى ازالة كل العراقيل من طريق الزواج ، لاقامة الافراح وبناء المجتمعات الصغيرة السعيدة .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هـل تزوجت ؟ فأجاب الرجل بأن ضيق ذات اليد يمنعه ، فسأله النبى : هـل تحفظ شيئا من القرآن ؟ قال الرجل نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : تزوج بما معك من القرآن ، واذا يسر الله لك ، فعوض أهلك خيرا .

وقال لآخر : التمس ولو خاتما من حديد . .

ومعروف انه صلى الله عليه وسلم كان يقول (من كان موسرا أن يتزوج ، ثم لم يتزوج ، فليس منى)

وبعد أن تلبى نداء الفطرة ، وتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبدأ فى اختيار الزوجة والايمان رفيقك فى كل خطوة لا يتخلى عنك لحظة ، لأنك أنما تريد أن تعف نفسك ، فسوف تجد كل الترحيب . . سوف تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقك الى أسرة الفتاة ، وأوصاهم بك خيرا ((**اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنـــه ، فى الأرض وفساد كبير**) .

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زودك بأغـلى نصيحة وأنت فى طريقك ، وقلب لك الأمر على وجوهه كلها ، فقال لك : (تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك) فعرفك بكل ما يطلبه الرجل عـادة فى زوجة المستقبل ، ثم أوصـاك بأن تختـار ذات الدين ، فاذا

جمعت الفتـــاة بعد ذلك مع دينها شيئا من المـــال والجمـــال والحسب والنسب فذلك خير ، ولكن هـــذا كله يأتى فى المرتبة الثانية بعد الدين .

ومع انه عليه الصلاة والسلام حذرك من أن يكون الجمال او المـــال هما كل همك (لا تنكح المراة لجمالهـــا فلعل جمالها يرويها ، ولا لمـــالها فلعل مالها يطغيها) مع ذلك كله ، فانا نؤكد لك من جديد انه ليس معنى ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يقدر الجمال ولا يعرف قيمة المـــال ، وانما معناه أن الدين قبل ذلك كله ، فلك أن تهتم بجمال الفتاة وحسبها ونسبها وثقافتها ومالها وغير ذلك مما يرغبك فيهـــا ، ولكن بعد استيفاء الشرط الأول (دينهـــا) .

انه يحذرك أن تنسى هـــذا الأمر او تتغاضى عنه فى غمرة المؤهلات الأخرى ، انها بغير الدين هباء ، بل انها بغير الدين قد تكون أسبابا للشقاء (فلعل جمالها يرديها ، ولعل مالها يطغيها) اما مع الدين فان جمالها لا يرديها ومالها لا يطغيها .

فليكن هدفك الأول احصـــان نفسك ، واقامة بيت سعيد ، وتكوين اسرة تسكن اليها ، وتجد فيها راحة النفس وانشراح الصدر وتربية الذرية الصالحة وبهجة الحياة ، اما اذا كان هدفك شـــيئا آخر ، فلتفكر مليـــا ، ولتتريث حتى تقرأ هـــذا الحديث الشريف (من تزوج امراة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجها لمـــالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصـــن نفسه ، بارك الله له فيها وبارك لها فيه) . . . .

ومن جديد اذكرك بان الاسلام لا يحذرك من أن تتزوج ذات المال والجمال والحسب والنسب ولكنه يحذرك أن تجعل هذه الأمور كل هدفك ، وان تنسى فى سبيلها الهدف الأول (دينها)

ولعلك تستطيع أن تلمح صفات الزوجة الصالحة المثالية من قوله تعالى لنساء النبى ((**عسى ربه ان طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا**))(٢) لعلك تلمح أن هذه الصفات الثمانية ، منها الصفتان الأخيرتان لا صلة لهما بالمثالية ، وانما يراد بهما ان الصفات المثالية يمكن أن تتوافر فى الثيب كما يمكن ان تتوافر فى البكر ، فليس التركيز على ان تكون المرأة بكرا لم تتزوج من قبل، او ثيبا سبق لها الزواج .. المهم اذن ان تعرف الصفات الست الأولى ، وهى الاسلام الظاهر ، والايمان القلبى ، والقنوت وهو طاعة الله ، والتوبة وهى الرجوع الى الله عند كل هفوة وعدم الغفلة عن الاستغفار دائما ، والعبادة وهى صفة تطلق على من أدى فرائض الله واحسن اداءها ، ثم تقرب الى الله بالنوافل فصار عابدا ، والصفة الأخيرة من هذه الصفات الست ، هى السياحة الى الله اى الاتجاه اليه واللجوء اليه دائما ((**ففروا الى الله**))(٣) .

ومع أن القرآن الكريم وضع امامك هذه الصورة المثالية للزوجة الصالحة فليس معنى ذلك ان يتمسك بها كل من اراد الزواج ، وان يشترط كل منا وجودها جميعا فى زوجته ، والا فانه سوف يتعب كثيرا قبل أن يعثر عليها ، ولكنك سوف تجد هذه الشروط جميعا ان شاء الله فى حوريات الجنة غير انهن ابكار

---

(٢) الآية رقم ٥ من سورة التحريم .

(٣) الآية رقم ٥٠ من سورة الذاريات .

كلهن ... أما فى دنيانا هــذه التى نحاول أن نجعلها جنة ، فلابد ان تصر على شرط الايمــان ، وهذا الشرط تتبعه بقيــة الشروط الضرورية فى الزوجة الصــالحة « **فالصالحات قانتات حافظــات للغيب بما حفظ الله** »(٤) .

واخشى أن أستمر فى الحديث عن الجوانب الوضــيئة فى الزوجــة فيبحث المتزوجون عن هــذه الجوانب فى زوجاتهم ، ثم يصيبهم الاحباط ، من أجل ذلك لابد أن تعرف الحقيقة ، لابد أن تعرف أن كل امرأة فى العالم تتصف بالخصــائص الأرضية ، فالى جانب قدرتها على اثبات النرجس والورد والفل والياسمين وغيرها من الزهور الجميلة التى تبدو على السطح ، ستجد فيها أيضــا بعض الخصائص الأرضية الأخرى .

ولذلك لابد ان اصارحك منذ البداية ، ان السعادة الزوجية لا يمكن الاحتفاظ بها الا بشروط معينة ، لا تخف ، انهــا شروط ليست صعبة التحقيق ، ولكنها أيضا ليست غاية فى السهولة .. وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يصــارحك بالحقيقة ، يصارحك فى حديث شريف يتخذه بعض المتعصبين حجة ضد المرأة ، مع انه ليس كذلك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلقت المرأة من ضلع اعوج ، ان ذهبت تقيمها كسرتها وان تركتها استمتعت بها على عوج) يا سبحان الله .. انه توجيه للرجــال ، توجيه للأزواج منهم خاصــة ، أن يوطنوا انفسهم على ما يعرفه كل مسلم من ان الكمال لله وحده ، وان الزوج ان كره من زوجته خلقا رضى منها آخر ، أما أن يطالب الكمال ، وهو يعرف أنه هو نفســه لم يصل

---

(٤) الآية رقم ٣٤ من سورة النساء .

الى الكمال ، أو يصر على استعمال الشدة ليطبعها بطابعه فسوف يحطم سعادته الزوجية . وان تغاضى عن بعض الأمور التى لا تمس الدين والفضيلة ، أمكن أن يحتفظ بالسعادة الزوجية ، وأن يصل باللين الى ما تعجز الشدة عنه ، فاذا استرشد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (استوصوا بالنساء خيرا) وعرف أن المرأة من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات ، وتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ولم ينس قول النبى صلى الله عليه وسلم (اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم بأهله) اذا فعل ذلك ، وقابلت الزوجة هذا منه بالتقدير والعرفان ، وذكرت ما كانت تردده أم سلمة رضى الله عنها من قول خير البرية (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) فانى أبشرهما بحياة زوجية سعيدة ، وحتى اذا ظهرت بعض السحب فى سماء هذا البيت السعيد ، فان ابتسامة مشرقة وكلمة عذبة ودعابة حلوة كفيلة بتبديد السحابة ، وعودة الصفاء والحب والسعادة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغمر بيته بالبشاشة والايناس والرفق ، وكان يقول : (ان الله عز وجل يعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق ، واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق ، وما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا الخير كله) .

وانت تعرف انه صلى الله عليه وسلم كما يشعر الزوجة بالجنة اذا كان زوجها راضيا عنها ، فقد بشر الزوج كذلك اذا أحسن معاملة زوجته ، وضرب لنا مثلا بنفسه فقال (خيركم خيركم لأهله ، وانا خيركم لاهلى) كما كان عليه الصلاة والسلام يقول (ما انفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر على اللقمة يضعها فى فم امرأته) .

كل ذلك ليسعى الزوج منشرح الصدر ، وينفق راضي النفس ، لأنه يعرف انه بذلك يسعى في طريق الجنة .

الم اقل لك أن الايمان لا يتخلى عنك في اية خطوة من خطواتك ، فها أنت ذا قد اخترت رفيقة حياتك ، وبدأتما حياة زوجية سعيدة ، بدأتما هذه الحياة بفرح يعلن زواجكما للناس ، وها نحن أولاء ننتظر ما يهبه الله لكما سبحانه ((**يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، انه عليم قدير**))(٥) .

ولابد انك سعيد باستقبال البنين والبنات ، ولكن سعادتك تكتمل بأن تحسن تربيتهم ، ليكونوا بررة بك وبزوجك ، وليكون بعضهم لبعض ردءا وعونا ، كما كنت لأخوتك حبا وحنانا وايثارا وبرا .

ولكن كيف تكون لهم خير أب كما كنت لزوجك خير زوج ؟

كيف تحميهم من نفسك وأخطائك قبل أن تحميهم من غيرك ، بنفس الدرجة التي حميت بها زوجك من نفسك وأخطائك قبل أن تحميها من كل الناس أو أكثر ؟

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من كان له ولد فليتصاب به)) أي فليكن معه كما يكون الصبي مع الصبي ملاطفة ومداعبة وايناسا ، وانت تعرف ان خير الآباء للأبناء من لم يدعه الحب للتفريط في تربيتهم ، حتى ولو ادى ذلك الى استخدام القسوة الرحيمة في بعض الأحيان ، ولعلك تكون قد قرأت في

---

(٥) الآية رقم ٥٠ من سورة الشورى .

العقد الفريد لابن عبد ربه تقسيم مراحل التربية فى الاسلام ، منذ ولادة الطفل وحتى يبلغ اشده (داعبه سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه) .

ماذا احسنت تربيتهم ، وكان لزوجك نصيب فى هذه التربية بلاشك ، فانك تعينهم بذلك على البر بهما وبك ، بل على أن يبر بعضهم بعضا ، ليكونوا مثل هذين الأخوين اللذين سارت يذكرهما الركبان ، فلعلك سمعت عن هذين الأخوين : لقد كان أكبرهما متزوجا ويعول أبناءه ، وكان أصغرهما لا يزال يبحث عن الزوجة الصالحة ، وقد ترك لهما أبوهما قطعة ارض كانا يزرعانها قمحا ، وبعد الحصاد اقتسما محصول القمح بالسوية ، ولكن الاكبر قال لزوجته ، ان أخى يعيش وحده ، وليس له زوجة ولا أولاد ، ليس له من يساعده ، وقد فكرت أن احمل عشر حزم من كومتى سرا فاضعها على كومته معونة له ، وسعدت الزوجة الصالحة بفكر زوجها الطيب الحنون ، وشجعته على تنفيذ الفكرة .

وتصادف أن فكر الصغير فى الليلة نفسها أن يحمل عشر حزم من كومته سرا ليضعها على كومة أخيه الذى يعول زوجة وأولادا .

وفى الصباح ، وجد كل منهما كومته كما هى .. وعجب ، كأنه لم يحمل منها شيئا ولم يضف الى كومة أخيه شيئا .

وفى الليلة التالية قام كل منهما بما قام به البارحة ، وتعجب كل منهما فى الصباح كما تعجب فى أمسه .. واستمر كل منهما بضع ليال يؤدى ما يراه واجب الأخوة نحو اخيه .. الى أن تصادف لقاؤهما فى جوف الليل ، فى منتصف الطريق بين الكومتين ، وكل

منهما يحمل من كومته ليضع على كومة اخيه .. والقى كل منهما حمله ، وكان بينهما عناق طويل ... وتنتهى القصـــة بعد ذلك نهايـــة مثيرة ، فقد اراد اهـــل القرية تكريم هـــذه الأرض فبنوا فوقها مسجدا .

وليس فى القصـــة بعد ذلك ما يحتاج الى تعليق ، فليس غريبا ان يحب الاخ اخاه كل هـــذا الحب ، ولكن الذى يستحق التقدير حقا هو موقف الزوجة ، زوجة الأخ الأكبر ، لا سيما ونحن نرى نقص الوازع الدينى يدفع بعض الأزواج الى ان تبذل كل جهد للايقاع بين زوجها وذويه ... ان المراة فى الأسرة الفاسدة تحاول ان تضرب سورا بين زوجها وبين ابيه وامه ، أن تسد كل المنفذ التى تصله بوالديه واخوته ، ليكون لها ولأولادها وحدهم ... ان مثل هـــذه الزوجة تندفع فى طريق الشقاء ، وتدفع الأسرة كلها الى هذا الطريق ، وواجبنا الا نعين الشيطان عليها ، وان نوجـــه اليها اشـــد التحذير واقواه ، انها بعد قليل ستزوج ابنها ونخشى ان تعاملها زوج ابنها بالمثل ، فتقطع كل حبـــال الود بينـــه وبين والديه واخوته .

اما عن بر الأبناء والبنات بالآباء والأمهـــات فان فضـــل الآباء والأمهات على الابنـــاء والبنات يمكن انكاره ، انه يأتى فى الترتيب عقب فضـــل الله سبحانه ، ولذلك نقرا فى القرآن الكريم **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا »**(٦) كما نقرا فى سورة اخرى قوله تعالى : **« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا »**(٧) .

---

(٦) الاية رقم ٣٦ من سورة النساء

(٧) الاية رقم ٢٣ من سورة الاسراء

ان بر الوالدين مقدم على الجهـــاد ، بل هو جهاد من انبل الجهاد ، ومعروفة قصـــة الشاب الذى ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يضمه الى صفوف المجـاهدين ، فسـألـه عليه الصلاة والسلام (هل لك من والديك أحد حى ؟) قـــال الفتى كلاهمـــا حى ، فرده عليه الصـلاة والسـلام قائلا له : (ففيهما فجاهد) وعاد الفتى ليجد أباه يبكى وينشد :

فـــانك وابتغـــاء الأجـــر بعـــدى
كبـــاغى المـــاء يتبـــع السرابـــا

وقد سمع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رغم انفه .. رغم انفه .. رغم انفه .. قالوا من يا رســـول الله ؟ قال من ادرك والداه عنده الكبر احدهما او كلاهما .. ثم لم يدخلاه الجنـــة) .

أما اســـماء بنت ابى بكر فتقول (قدمت عـــلى امى وهى مشركة ، وكانت راغبة فى مـــالى ، طامعة فى عطائى ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل أصلها واتصدق عليها مع كفرها ؟ قال (نعم ، صلى امك) .

بل أن بر الوالدين أمر تدعو اليه الفطرة السليمة ، كمـــا يدعو اليه الاســـلام .

والآن دعنى أسالك سؤالا واحدا : هل تأمن انسانا لم يكن أمينا على والديه ؟ اما انا فلا آمنه ، انه جدير بأن يخون وطنه ، ويخون أصدقاءه ... فقد خان نفسه وأهله ؟

وقد كان الصحابة يبادرون الى بر الوالدين ويتفننون فيه ، فهذا احدهم لا يشرب اللبن صباحا أو مساء قبل أن يسقيهما ، فاذا ناما قبل أن يشربا فى المساء ، انتظر بالاناء حتى يستيقظا فيشربا قبل أن يشرب ، وهذا آخر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بقى من بر ابوى شىء ابرهما به بعد موتهما ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (نعم ، الصلاة عليهما(٨) وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما) .

ان باب البر مفتوح دائما ، أن تبر والديك فى حياتهما وبعد موتهما ، وأن تصل رحمك ، وان تغرس فى أولادك هذه الخلال ، لتسعد بهم ، وترى من ايمانهم وصلاحهم وبرهم بك ما رآه منك أبواك **« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما »** (٩) .

---

(٨) والصلاه هنا بمعنى الدعاء لهما .

(٩) الآية رقم ٧٤ من سورة الفرقان .

الفصـــل الثـــانى

حتى تحـــابوا ...

ويقبـــح من ســـــواك الفعــل عنـــدى
وتفعـــــله فيحســـــــن منـــــك ذاكـــا

ماذا يريد هــذا الشاعر ان يقول ؟ هل يريد ان يقول انه ليس حيأديا ولا موضوعيا ؟

هل يريد أن تتهم احـكامه بالخلل ، واستحسانه بالخطــا والزلل ؟

لا اظـــن ...

انه بكل بساطة يريد ان يقول : انى احبك ، ولذا فانى ارى الجمال فى كل ما تقول وتفعل ، انى أراه جميلا غاية الجمال لأنه صادر عنك ، ولو صدر عن غيرك لكان قبيحا غاية القبح ، انه الحب يا صديقى ، يطبع الأشياء والأحياء بطـابع الجمال ، انه الحب يا صديقى ، يجعلك ترى فيمن تحب كل جميل حتى ولو كان فى حقيقته غير ذلك ، انك لا ترى غير الجميل .

وعين الرضـــا عـــن كل عيب كليلة
كما ان عين السخط تبدى المساويا

وصلة الحب بالسعادة لا تحتاج الى بيـــان ، كما ان صلة السخط بالتعاسة ليست خافية ، فابتسام العين ، وبشاشة

الوجه ، وانشراح الصــدر ، وغير ذلك من علامات السعادة ، تظهر كأوضح ما يكون الظهور عندما ترى ما تحب أو من تحب ، بينما نظهر علامات التعاســة من عبوس الوجه ، وضيق الصــدر وكآبة النفس عندما ترى ما تكره أو من تكره ... فكيف لا نحب الحب ؟ !

كيف لا نحبه ولولاه ما ترابط الناس ، ولا تعاونوا ، ولا تكون مجتمع سعيد ؟ بل كيف لا نحبه وقد سمعنا أمير الشعراء لا يعترف بحياة تخلو من الحب ؛ فالحياة الحب ، والحب الحياة ، انه يرى أن الحياة بلا حب مستحيلة ، كما يرى إن الحياة بلا حب ليست حيــاة .

ان الحياة بلا حب حياة راكدة قاحلة مجدبة ، ضــاق بها أبو الطيب فى مصر أيام كافور فاستقبل العيد أبشــع استقبال ، ورده أسوأ رد :

عيــد بأيــة حــال عــدت يا عيــد
بمــا مضى أم لأمــر فيــك تجــديد
أمــا الاحبــة فالبيــداء دونهــم
فليت دونــك بيــدا دونهــا بيــد

ولا تعجل فتتصور احبة المتنبى فتيات فاتنات ، ان الأحبــة عنده مجموعة من الأمانى البعيدة ، لم يأت بها العيد معه فهرب من العيد ، وفر من مصر أرض الخصــوبة والخير والبنــاء ، وهجا الأخشيد برائعة من روائعه .

لقد فقد أبو الطيب سعادته كلها عندما فقد الأحبة ، فأسرع يقطع الآمال بحثا عنها فى أرض جديدة ، بينما أحس شاعر بدوى

بدافق الحب يروى قلبه ، وينعش روحه ، رغم الصحراء المجدبة ، فتصور أن الحب يسرى فى نسمات الجو كله ، وينتقل بالايحاء الى ما حوله من ابل وشاء ، فتهلل وجهه وانطلق لسانه :

فأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيرى

هذا شاعر سعيد لا يشكو ولا يتوجع ، لا يهجو ولا يتفجع ، لانه يحيا حياة الحب .

بينما نلاحظ تلك اللمحة اللغوية الذكية فى وصف من ماتت زوجه ومن مات زوجها بالترمل ، وهى كلمة مشتقة من الرمال الجافة الجرداء ، اى أن حياة الرجل او المرأة بلا زوج تنقلب من حياة زوجية سعيدة خصبية مثمرة خضراء الى حياة جافة بغيضة قاسية جدباء .

ويرى بعض الفلاسفة ان الحب يربط بين السماء والأرض ، بين الافلاك والكواكب ، فهى فى انضباطها وتعاونها تحيا بانتظام ، فالسماء ذات رجع والأرض ذات صدع ، وحرارة الشمس تصعد بالبخار الى السماء ، فتسوقه الريح الى بلد ميت ، ثم ينزل غيثا تحيا به الأرض وما عليها من النبات والحيوان . . وفى الحق ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ، انه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ، وهل التجاذب والحب والتعاون الا فضلا من افضاله ، ونعمة من نعمه ؟ ! سبحانه سبحانه .

وحينما احس البحترى بالسعادة فى الربيع ، واراد أن يتغنى بجماله ، ويدعوك الى استقباله ، تصوره انسانا سعيدا تنطق بالسعادة أساريره ، فقام يهلل :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

هـذا يحب الربيع والطبيعة والجمال ، وابو الطيب يحب المعالى ويتغزل فى المجد ويتمنى على الله الأمانى ، وكل يغنى على ليلاه ..

الا تلاحظ أن القصص والافلام والمسرحيات تدور كلها حول الحب موجودا ومفقودا ؟ الا ترى أن تجارة السمعيات والمرئيات والأزياء وأدوات الزينة والتجميل ليس لها موضوع الا الحب ؟ بل الا ترى أن السعي والكسب والعلم والفلسفة والفن والنشاط الانسانى كله ينتعش بالحب ؟ حب العلم أو حب النفس أو حب الناس أو حب الله ؟

الحب والبغض وراء كل نشاط ، وكل حركة ، وكل تمود ، وكل احباط ، فمن الناس من يحب الخير ويهوى الفضائل ويتعشق المجد ويهيم بالاصلاح ، فينطلق في حماس شديد وسعى دائب ونشاط لا يهدأ ، يقطع الأميال ويبذل الجهد الجهد وصولا الى معشوقه الجميل .. ومن الطبيعى ان تجد هـذا الانسان السوى يكره الشر ويقاومه فى نفسه وفى مجتمعه .. ومن الناس من فسد طبعه واصبح مطية للشيطان .. يقوده الى الشر فينقاد على استحياء اول الأمر ، ثم تنقلب كل الموازين فى عقله وقلبه فيهوى الشر ويتعشق الايذاء ويحب الفساد ، والعياذ بالله .

والناس جميعا درجات بين هـذا وذاك ، فانظر الى اى الفريقين تنتمى ، واسمع توجيه القرآن الكريم الى السعداء « **ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات** »(١) ، إن الخيرات هى معشوق السعداء ، وهم يستبقون فى حبها ، ويتنافسون فى

---

(١) الآية رقم ١٤٨ من سورة البقرة

وصلها ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثل هــذا فليعمــل العــاملون .

من الناس من يحب ما ينفعه سـواء أكان جميــلا او غير جميل ، ويتعصب لمن ينفعه سواء أكان على حق أم على باطل ، ولكن السعداء حقا يحبون كل جميل ، وكل حق وكل خير ، دون ان ينتظروا نفعا ماديا من وراء هــذا الحب ، انهم يحبون الحق والخير والجمال ، لأن النفع الحقيقى لا يمكن الا أن يكون فى الخير والحق والجمــال ، ان الحب الأفلاطونى لــه مبرراته من الائتناس المعنوى والاطمئنان النفسى والسعادة الوجدانية .

ولن ندخل فى خضم الجدل التقليدى حول ما هو الحســن وما هو القبيح ، وهل الحسن ما استحسنه العقل او ما استحسنه الشرع ؟ لاننا لا نسمح بأن نضــع العقل فى مقابل الشرع كأنهما متعارضان ، فليس بين العقل الطبيعى الحر ، وبين الشرع الآلهى الصحيح أى تعارض . وانما يقع التعارض اذا وقع العقل تحت تأثير عرض او مرض ، اذا تجــاوز حده فضل وتاه ، ولكنه حينما يزول عنه المؤثر ، سواء أكان هذا المؤثر هوى أو جهلا أو قصــورا فى الدراســة ، فسوف تلتقى دائما أحكام العقل السليم والشرع الصحيح . فاذا كنت من الســعداء فعلا .. أو ممن ينشــدون السعادة الحقــة ، أحببت ما استحسنه العقل والشرع ، وكرهت ما استقبحه العقل والشرع ، وحينئذ ستجد أن أول ما تحبــه وتسعد بحبه هو الله سبحانه ، لأنه جميل يحب الجمال ، ولأنه صاحب الفضــل كله ، ولأنه بذاك بالانعــام فخلقك ، وتعهدك جنينا فى ظلمات ثلاث ، ثم طفلا رضيعا ، ثم صبيا وشابا تملأ الدنيا بهجة وحيوية ، تخطئ ويستر ، وتذنب ويتجاوز عنك ، وتنساه ولا ينسى رزقــك .

فاذا احببته كما ينبغى لك ، فقد غرست نواة الحب فى قلبك ، وضعت اساس السعادة فى حياتك ، ووجدت حلاوة الايمان فى نفسك (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحببه الا لله وان يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار). فاذا أحببت ربك هذا الحب ، وظهرت ثمار حبك له سبحانه فى حبك لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وفى حبك للصالحين المصلحين ، لا تحبهم إلا لأنك تعرف أن الله يرضى عن هذا الحب ، وأحببت نعمة الايمان كل الحب ، وتمسكت بها كل التمسك ، حتى كرهت أن تنزع منك هذه النعمة وان تعود الى الكفر ، كما تكره أن تلقى فى النار ، لأنك موقن أن الكفر يلقى بصاحبه فى النار فعلا .. اذا فعلت ذلك فقد قطعت نصف الطريق الى السعادة الكاملة ..

هل انت مشوق لمعرفة النصف الآخر ؟

مما لا شك فيه انك تعرف اهمية ذلك النصف ، فلئن كان النصف الأول فى غاية الأهمية لأنه هو الاساس ، فإن النصف الثانى فى غاية الأهمية أيضا لأنه هو الموصل للثمرة ، تلك الثمرة التى ترجوها ونرجوها ونسأل الله سبحانه أن يبلغنا اياها .

ولعلك تذكر انك قرأت فى الفصل الرابع « فصل التيسير » أن بلوغك الى رضوان الله يحتاج الى جناحين قويين ، هما الايمان والعمل الصالح .. ولكننا هنا نتحدث عن الحب ، وقد قطعت نصف الطريق الى السعادة الكاملة بحبك لله ، ووجدت حلاوة الايمان بهذا الحب ، لأنه حب من جانبك ، وهو أساس عظيم وخطوة حاسمة تستطيع بها أن تستمتع وتنتفع ، استمع ما يقوله رب العزة لنبيه ، ليدلنا على النصف الآخر فى طريق السعادة

الغامرة ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ((**قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله**))(٢) .

الخطوة الأولى اذن هي أن تحب الله ، والخطوة العظمى أن تتبع ما جاء به الرسول فيحبك الله ، واذا أحبك الله فقد وصلت ، ماذا ترجو بعد ذلك ؟ ان قمة السعادة ان يحبك الله ، فاذا احبك تجاوز عن سيئاتك وضاعف حسناتك ((**قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**))(٣) . . .

انه كريم ، ان اقبلت عليه شبرا اقبل عليك زراعا ، وان اقبلت عليه ذراعا اقبل عليك باعا ، وان جئته تمشي أتاك هرولة .

انه رحيم ، انه ودود ، انه يحب .. يحب المتقين ويحب المحسنين ، يحب الصابرين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ، فاذا احببت الله ثم اتبعت ما جاء به رسوله .. أحبك الله ورضى عنك ، واغدق عليك واكرمك ، وتولاك ورعاك . وعافاك وبارك لك فيما أعطاك . . . واسعدك

الخطوة الأولى اذن أن تتعلم كيف تحب ، وماذا تحب .. كيف تملأ قلبك بالحب ، وان تتوجه بهذا الحب .

الحب نعمة يمنحها الله لمن يشاء من عباده فيعرف كيف يطهر قلبه من الحقد والغل والحسد ، ثم يملأه بعد ذلك بالحب ، حب الله ورسوله وعباده الصالحين ، حب الحق والخير والجمال . . .

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ومعه بعض صحابته فقال لهم : يطلع عليكم من هذا الجانب رجل من أهل الجنة ، وتطلع الناس الى الجانب الذي أشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم . . واشرأبت أعناقهم ليروا من هذا الذي يبشره

---

(٢) الآية رقم ٣١ من سورة آل عمران.

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وتوقعوا أن يروا صحابيًا من كبار الصحابة ، أو عابدا من مشاهير العباد ، ولكن طلع عليهم رجل عادى من الأنصار ... وفى المساء ذهب اليه عبد الله بن عمرو بن العاص ليرى عبادته ، ... وطرق عليه الباب ، فلما استقبله الأنصارى ، زعم عبد الله أنه قد حدث بينه وبين أبيه شىء ... وأنه ضيف عند الرجل حتى يسكت الغضب عن أبيه ، فيعود اليه ، ورحب الأنصارى بعبد الله . ولكن عبد الله لم ينم : وانما أخذ يترقب ليرى كيف يقوم الأنصارى ليله ويصوم نهاره ، فلم يجد شيئا من ذلك ، بل وجد عبادة عادية أقل من عبادته(٤) ، فقال فى نفسه لعل الرجل كان متعبا الليلة ، وترقب الليلة التالية ، ولكنه لم يجد عبادة أكثر من البارحة ، وفى الليلة الثالثة كذلك .. فاضطر عبد الله الى مصارحة الرجل ، بأنه لم يحدث بينه وبين أبيه شىء ، وانما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قال عن هذا الأنصارى فأراد أن يعرف سر هذه البشرى ، وعجب كل العجب أن يرى عبادة الرجل أقل من عبادته ، فقال الأنصارى ليست لى عبادة خاصة ، فهذه هى عبادتى ، قال عبد الله بن عمرو : فما هو السر اذن ؟ تذكر .. فقال الرجل لا شىء . هذه عبادتى ، غير أنى أحب الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ولا أحمل حقدا لأحد ... ، قال عبد الله : هذه ، بهذه وصلت ، بالقلب النظيف الذى يجيد الحب ولا يعرف الحقد وصلت ، الى رضوان الله وصلت ، وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة .

---

(٤) وقد كانت عبادة عبد الله بن عمرو معروفة بالمغالاة حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر ، وتصلى الليل ؟ فلا تفعل ... فان لعينيك حظا ، ولنفسك حظا ولأهلك حظا ، فصم وافطر ، وصل ونم ، وصم من كل عشرة أيام يوما ولك أجر تسعة) رواه البخارى ومسلم .

تعلم يا اخى كيف تحب ، كيف تطهر قلبك من البغضاء والضغينة ، من الحقد والحسد ، تعلم كيف تحب أخاك وجارك وزميلك فى العمل ، كيف تحب الخير للناس وتفرح فعلا بما يصيبهم من خير ، تعلم ، وسوف تسعد دائما بما ترى من نعم الله على عباده ، ونعم الله لا تنتهى ..

هل تعرف ان الحب هو العامل الحقيقى فى سعادة القلوب ، انك اذا احببت الناس وجدت فى صدرك سعة لأخطائهم ، لن تراها جرائم ، ستراها مجرد اخطاء صغيرة يمكن التجاوز عنها والتسامح فيها ، لن يضخمها فى نفسك الحقد عليهم والكره لهم .

هل تعرف ان ابتسامة الحب تفتح القلوب المغلقة ؟ هل نعرف ان حب النفس طبيعة البشر ، ولذلك لا تعجب اذا رأيت الانسان يحب لنفسه الخير ، أن رب العزة يعرف ذلك **((الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))**(١) من أجل ذلك يبشر الصالحين من عباده بالخير ، لأنه يعرف انهم يحبون لانفسهم الخير ، وينذر المنحرفين بالشر لأن كل انسان يكره لنفسه الشر ، فلا تغضب لما ترى فى الناس من حب لأنفسهم ، انها طبيعة يمكن أن تستثمرها بأن تقدم لهم الخير ما استطعت ، وان تبعد عنهم الشر ما استطعت ، أن تبعد شرك انت على الأقل ، فاذا وفقك الله ان تبعد عنهم شرورا أخرى فأنت من الفائزين .

هل تعرف ان حبك للعمل ، اى عمل ، يجعلك سعيدا به ، تسعد اثناء ممارسته وتسعد حينما ترى نتيجته .. ثم تتقنه كل الاتقان ، وتبدع فيه ، وتطوره لأنك تحبه ؟

---

(٥) الآية رقم ١٤ من سورة الملك

وأخيرا ، هل تعرف نعمة الصديق ، وحب الصديق ؟ ولنسأل انفسنا أولا : من هو الصديق ؟ هناك من يقول ان الصديق هو الشخص الذى يمكنك أن تثق به ، وهناك من يقول انه الشخص الذى تأنس اليه وترتاح الى وجوده معك وتحن اليه إذا غاب عنك ، ولكن أبا الطيب المتنبى وهو من أكبر الشعراء فى الأدب العربى ، أخطأ مرة فى استخدام لفظ الصديق فقال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

وما أن سمع سيبويه المصرى هذا البيت حتى قال : ان أبا الطيب لا يعرف معنى الصداقة ، كيف يكون صديقا وعدوا فى الوقت نفسه ؟ ان الصداقة مشتقة من الصدق ، من صدق المودة ، فلا يمكن أن يسمى العدو الذى تضطر الى معاملته او مشاركته فى شيء ، او العمل معه فى أمر من الأمور ، وأنت لا تحبه ولا يحبك ، لا يمكن أن يسمى هذا صديقا ، ولا أن توصف هذه العلاقة بأنها صداقة ، لأنه ليس صادق الود ، وليست علاقتك به من اجل هذا الود ، ان الصديق كلمة جميلة مشتقة من الصدق كما رأيت ، كما اشتقت كلمة الخليل من تخلل محبته لشغاف القلب ولذلك يقول الشاعر .

قد تخللت مسلك الروح منى
وبه سمى الخليل خليلا

ومما لا شك فيه انك تعرف نعمة الصديق ، وتقدر قيمة الخليل ، ان الحياة بلا صديق قاسية ، جافة ، كئيبة ، ثقيلة .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا أراد الله بعبد خيرا

رزقة خليـــلا صالحا ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعـــانه) اى ان الصديق الصادق الود ان نسيت ما يجب الا تنساه ذكرك . ان نسيت ربك ، ان نسيت واجبك ، ان نسيت أن تبر اهلك ، ان نسيت تلك القاعدة الذهبية ، وهى أن اى عمل يقصــد به وجه الله عبادة ، ان نسيت ذلك ، أو نسيت أن تجعل هدفك فى الحيــاة تقييم الخير لنفسك وللناس .. ذكرك ، وان ذكرت واجبك شجعك على أدائه ، وأعانك عليه ، **هــذا هو الحب . هذا هو الصــدق** فى المودة ، ومن هنا كانت الصداقة نعمة ، لقد كان الصحابة عليهم الرضوان يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الحب ، حتى لقد بكى أحدهم فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ قال الصحابى : يا رسول الله ، انى كلما أحببت أن أراك حضرت الى المسجد لأسعد برؤيتك ، ولكنى كلما تذكرت درجات الجنة ، وأننى لن أراك هناك ، لأنك سوف تكون فى الدرجة العليا ، ونحن ان دخلنا الجنة سنكون فى درجة ادنى وبين كل درجــة واخرى سبعون خريفا .. كلما تذكرت أننى فى الجنة لا أراك اشتد حزنى فبكيت ، ونزل قول الله سبحانه ((**ومن يطع الله والرســول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهــم من النبيين والصــديقين والشــهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**))(٦) وحينئذ طمأنه رســول الله صلى الله عليه وسلم وقال له (انت مع من احببت) .

وكما عرفت فان الحب يسعد صاحبه اذا أحب ما ينبغى للانسان الكريم أن يحب (والناس فيما يعشقون مذاهب) .

فهذا صحابى يعشق سورة الأخلاص ((**قل هو الله أحــد**)) ولذلك يقرؤها فى صلواته كل ركعة ، يقرأ الفاتحة ثم الاخــلاص ،

---

(٦) الاية رقم ٦٩ من سورة النساء

ويقرأ بعد ذلك سورة قصيرة أخرى ، أو بعض آيات من سورة ، وهكذا فى كل ركعة ، وكان الرجل يصلى اماما بالناس ، وشكا بعضهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاكما يشكو الناس بعضهم بعضا فى هذا العصر ، يشكونهم لمجرد التنكيل بهم ، والتشهير بسيرتهم .. ان الصحابة لم يكونوا كذلك ، وانما كانت شكواهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرفوا هل يجوز ذلك فى الصلاة أم لا يجوز ، واستدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عن سر قراءتها مع الفاتحة فى كل ركعة ، ما دام يحفظ غيرها ويقرأ بعدها سورة أخرى ، فبكى الرجل وقال فيما يشبه الوجد (انى أحبها يا رسول الله) فربت عليه الصلاة والسلام على كتفه وقال له (حبك اياها أدخلك الجنة) !

وآخر يعشق لغة القرآن ، وينشد فى حب صادق :

لا تلمنى فى هواها
ليس يرضينى سواها
لست وحدى أفتديها
كلنا اليوم فداها

فيها الأم تغنت
وبها الوالد فاها
لغة الأجداد هذى
رفع الله لواها

ومن السعداء كثيرون يجعلون الكتاب خير صديق فى رحلة الحياة ، ومؤمن لا يسمع من الاذاعات الا اذاعة القرآن الكريم ، انه يحبها .. يطرب لسماعها . ويردد مع ندائها اليومى (يا أمة القرآن) بيتا من الشعر صاغة الحب ، وتغنى به .

« يا امــة القرآن » يا خير الأمم   صوت من الأعماق وضاء النغم

وانت ٠٠ ماذا تحسب ؟

ان أردت السعادة صافية لا يكدرها شيء ، فاجعل حب اللـه يملأ قلبك ، اجعله دينك ، غذاءك ، روحك ، حياتك ٠٠٠ ثم اتبـع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحبك الله ويرضى عنك ، وينادي فى الملأ الأعلى ٠٠انى احب فلانا فاحبوه ، وأذا احبك الملأ الملائك ٠٠٠ نادى مناد فى الأرض ٠٠ ان الله يحب فلانا فاحبوه ٠٠ فيحبك أهل الأرض ٠٠ وتصـبح عضـوا فى مجتمـع السـعداء الذين يألفون ويؤلفون ٠٠ وعلى هذه العضوية تتوقف سعادة الآخـرة (**والذي نفس بيـده لا تدخلون الجنـة حتى تؤمنـوا ، ولن تؤمنـوا حتى تحـابوا ٠٠)** ٠

الفصـــل الثـــالث

وتعـــــانـــوا

أظنك مطمئنا الى أن المجتمع المتحاب سيكون متعاونا ، وهل ينجح مجتمع ويسعد الا اذا كان متحابا متعاونا ؟ وهل يفشل مجتمع ويشقى الا اذا كان متباغضا متنازعا ؟ ! وسوف يبتسم علماء السماء والأنغام تسرح قطعانا في جنبات الأرض ، وناهيك بما انه غريزة ، طبيعة ، فطرة .. الطيور تتعاون أسرابا في جو السماء ، والأنغام تسرح قطعانا في جنبات الأرض ، وناهيك بما يقوم به النمل والنحل من تنظيم للتعاون دقيق يثير الاعجاب ، ويعطى مثلا رائعا للانسان . ونعم . أن التعاون هو نداء الفطرة ، ولكن الا ترى معى ان هناك من الافراد والمجتمعات في عالم الانسان بالذات من يفسد الفطرة وينحرف عنها ؟ الا ترى أن كل مولود يولد على الفطرة ، ولكن أبواه أو مدرسته أو بيئته تنحرف به بعيدا عن الفطرة وعن دين الفطرة ، بل الا ترى من المجتمعات الاسلامية نفسها ــ والمفروض أنها على دين الفطرة ــ مجتمعات تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟! تستبدل التباغض والتخاصم والتنازع الهدام بالتحاب والتقارب والتعاون البناء ؟! فليصحح علماء النفس نظرياتهم بناء على واقع الانسان ، وليتقبلوا شكرنا الجزيل على ما بذلوا من جهد وقدموا من دراسات حول تعاون الطير وطبائع الحيوان

وأخرى لا بد من التنبيه اليها والتحذير من الغفلة عنها ، وهى أن التعاون الذى نريده للمجتمع السعيد ليس مجرد التعاون على أى شىء .. ليس تعاون القطعان يقودها كبش أو تيس ــ ليس تعاون الجاهلية الأولى ... وقد كانوا كما نعرف :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم　　　في الحادثات على ما قال برهانا

لقد علمنا الاسلام كيف يكون التعاون ، التعاون الانسانى الراقى ، وقدم لنا مفهوما جديدا للمثل القديم (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) فقد سأل الصحابة ـ رضى الله عنهم وجزاهم خير الجزاء عن هذه الاسئلة الموفقة ـ سألوا رسول اله صلى الله عليه وسلم (يارسول الله ، أنصره مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟) ٠

لقد بعث الاسلام فيهم الروح الانسانى الراقى ، فلم يعودوا يستسيغون هذا المثل الجاهلى ، ان الانسان ينصر أخاه اذا كان مظلوما ، وهذا أمر طبيعى ، واسلامى ، وانسانى ، ولكن كيف ينصر أخاه وهو ظالم ؟ ولا بد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتسم لهم وفرح بهم وأسعده سؤالهم ، فقال : (تمنعه عن الظلم فذلك نصره) انك حينئذ تنصره على شيطانه ، تنصره على أهوائه ، تنصره على الجوانب الشريرة فى نفسه ٠٠ فهذا هو أرقى ما عرفت الانسانية من أنواع التعاون ٠٠ وتأتى الآية القرآنية فى ذلك حاسمة (**وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**) (١) والبر هو التوسع فى عمل الخير ، والتقوى هى أن تفعل ما أمر الله به ، وتنتهى عما نهى الله عنه ، والتقوى كلمة مركزة ، أو كلمة جامعة كما يقول السلف الصالح ، وكذلك البر ، أى انك يمكن أن تكتب مجلدات عن التقوى ، ومجلدات عن البر ، ولعلك سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه يقول عن البر (عجبت للرجل يأتيه أخوه فى حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلا) وسمعته يقول عن التقوى (التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل) ٠

---

(١) من الآية رقم ٢ من سورة المائدة

ومن المؤكد انك سمعت قبل ذلك من خبر البرية أن البر لا يبلى ، وعرفت كيف يلتقى البر بأوسع معانيه مع التقوى فى بعض معانيها وذلك فى قول الله سبحانه (**ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة،وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون (٢)** ·

هذا هو البر مفصلا ، يلتقى مع الصدق والتقوى فى عقيدة المجتمع السعيد ، وفى عباداته ، وفى معاملاته ·

وقد أراد أحد الشعراء أن يبين لابنه أن البر ميسر لا صعوبة فيه ، فقال فى بساطة شديدة :

بنى ان البر شىء هين ـــ وجه طليق ولسان لين

ولكن هذه البساطة ما هى الا شكل من أشكال البر ، أما البر كما ورد فى الآية الكريمة ، وكذلك التقوى ·· فهما مجال التعاون فى هذه الحياة ·· انشاء الشركات الكبيرة والتعاون فيها ·· اذا كان لخير المجتمع فهو بر ، تعاون الشعب لانقاذ المظلوم وردع المعتدى بر ، التعاون البناء فى مجال العلوم والآداب والدراسات النافعة بر ، ولذا فاننا ننصح هذا الولد العزيز الا يقف بمعنى البر عند تبسيط أبيه له ، فيعتقد أن البر محصور فى هذين الامرين (وجه طليق ولسان لين) نعم ، انهما لون من الوان البر ، وهو بر تحتاج اليه البشرية المعذبة وتسعد به النفوس المرهقة ·· ونعم ، ان البائس يحتاج الى من يبتسم له ويقول له كلمة طيبة

---

(٢) الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة ·

بـلا شـك ، ولكنه يحتاج مع ذلك الى من يقدم لـه العون ، يحتاج الى الاخذ بيده ، وتقديم ما يحتاجه من مقومات الحياة ...

. ان الخائف يحتاج الى الأمان ، والجائع يحتاج الى الطعام ، وحرام على المجتمع الانسانى وقد بلغ ما بلغ من التقدم ، أن يظـل فى الأرض جائع أو عريان .. ان ما تخرجه الأرض ومـا تنتجه المصانع يكفى أهل الارض جميعا ويفيض .

واذا كان « برنارد شـو » الأديب البريطانى الساخر ، قـد سـئل مرة عن عالم اليوم فقال (عالم اليوم كرأسى ولحيتى ، كثرة فى الانتاج وسوء فى التوزيع) (٣) فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقه بأكثـر من ألف وثلاثمائة سـنة بقوله دون سـخرية (ما جاع فقير الا ببطنة غنى) ان كل مترف ينعم بثمار التعـاون الانسانى كله .. ان السيارة التى يركبها تعاونت فى صنعها مئات الأيدى وعشرات البحوث العلمية ، وكذلك الطريق المرصوف الذى يسلكه ، والقصـر الذى يسكنه ، وكل الأدوات المنزلية والمخترعات الحديثة تعاونت فى صنعها وتوصيلها اليـه أجناس كثيرة ، فلينظر الانسان الى طعامه ، ولينظر الى فراشه ومنامه ... :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

بل ان التعاون الانسانى يمتد عبر العصور ، اننى أحيا سعيدا وأرى طريق النور فى ضوء ما تعاونت عليـه مجموعة من الرجال فى دار الارقم بن أبى الارقم ، ومجموعة من جند الله بعث بهم أمير المؤمنين (٤) الى مصر ، واقرأ مئـات الكتب من ثمـار العقـول

---

(٣) كان « برنارد شـو » أصلع الرأس كث اللحية .

(٤) جيش الفتح الاسلامى بقيادة عمرو بن العاص ، بعث بـه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

العبقرية فى أشياء المخصورة .. هذا فكر منذ قرون فى جرجان ، وذلك أبدع قبل سنتين فى بغداد ، وثالث يكتب فى قرطبة ـ من أيام قرطبة وغرناطة واشبيلية ـ وسهر الناسخ والوراق .. ثم فكر « جوتنبرج » (٥) فى بلاد الراين ، ودارت المطابع فى بولاق والرياض ومكة والمدينة ، وأنا أقرأ فى مصر ، ويبتهج القلب وتنتعش الروح وتنفرج الأسارير ، وأشعر بالسعادة الغامرة .. فأكتب لك هذه الدعوة .. وصوت يأتى من بعيد ، ويصل الى بعيد ، يصل الى أعماق القلوب ، تسجيل القرآن الكريم بصوت مصرى مسجل فى القاهرة أو فى الرياض أو فى الدوحة أو فى ابى ظبى .. ويصل الى قلوب المؤمنين والمؤمنات فى كل أرض ، يصل الى مقر الايمان ، وينعش الروح والوجدان : كم من الأيدى اشتركت فى التسجيل ، وفى صنع الجهاز ، وتوصيله اليك ؟ .

ولعلك تذكر تلك الحكاية الفارسية التى يرويها التاريخ عن فلاح كبير السن والتجربة ، كان يزرع شجرة من أشجار الزيتون ، ومر به ملك الفرس فى حاشيته ، فعجب لهذا الشيخ الهرم يغرس شجرة بطيئة النمو بطيئة الثمر ، وكان فى منطق الملك ـ كما فى منطق غيره من النـاس ـ ان الموت قريب من الشيوخ بعيد عن الشباب . فقال للرجل إن الزيتون بطىء الثمر وأنت رجل هرم ، فلم تجهد نفسك فى زراعة شجر لن يثمر فى حياتك ؟ فقال الرجل (زرع من قبلنا فأكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا) فقال الملك أحسنت ، وكانت الحاشية تعطى جائزة كبيرة لمن يقول له الملك أحسنت ، حسب تقليد كسروى قديم ، فأعطوه الجائزة الكبيرة . فلما رآها الرجل قال للملك : « الا ترى ؟! لقد أثمرت شجرتى سريعا » فقال الملك أحسنت ، فأعطت الحاشية للرجل جائزة مماثلة للأولى ، فقال

---

(٥) مخترع الطباعة .

الرجل عجبا ، ان الشجر يثمر كل عام مرة ، وشجرتى أثمرت مرتين فى لحظة ، فقال الملك أحسنت ، فقدمت له الحاشية جائزة ثالثة .

ولا يعنينا فى هذه القصة مبلغ الجائزة ، ولا سرعة انصراف الملك وحاشيته حتى لا تنفد نقودهم كما يقول أبو الوفاء البغدادى ، ولكن الذى يعنينا هو قول هذا الرجل الكبير سنا وتجربة وحكمة (زرع من قبلنا فاكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا) أنه يعرف بحسه الفطرى تعاون الاجيال المتعاقبة ، لتوفير السعادة للمجتمع الانسانى .

والشورى التى أمر الله بها نبيه ، ووصف بها مجتمع المؤمنين ، هى نوع من التعاون الفكرى والعلمى والسياسى والاجتماعى .

بهذه الروح الاجتماعية تحيا المجتمعات وتنهض .. وتسعد ، فما دمت فى عون أخيك سوف تجد الله فى عونك ، وأظنك تحفظ هذا الحديث الشريف (الله فى عون العبد ، ما دام العبد فى عون أخيه) ولنا فى هذا الحديث وقفتان :

أولاهما : فى مفهوم المخالفة ، أى أننا نسأل : اذا لم يكن العبد فى عون أخيه ، فماذا يكون ؟ يتخلى الله عنه ... تصور ... انسان يمشى على الأرض وقد تخلى الله عنه ، ماذا يحدث له فى أرض الله ؟ تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، تتقاذفه التيارات وتذهب به الزوابع وتعصف به الخطوب .

والثانية : هى كلمة (أخيه) ان الاسلام ينظر الى الناس على أنهم اخوة (انما المؤمنون اخوة) ويناديهم بلفظ الأخوة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يركز على هذا المعنى (لا يبع

أحدكم على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيــه ، حتى يدع)
إنه أخوك ، أخوك فى اللــه ، فى الدين ، فى طـريق النـور ، فى
مجتمع السعداء ، أخوك ...

وتصور هؤلاء الاخوة وقـد ادار كل منهم ظهـره لأخيه ..
تباعدوا وتباغضوا وتخلى الله عنهم ، قد يكونون اذكياء ، وقد يكون
كل منهم ناجحا فى عمله ، ولكنهم اذا فقدوا رباط الاخوة ، اذا لم
يتعاونوا على البر والتقوى ، يتخلى الله عنهم ، ولا يمكن أن يسعدوا
أو يســعد بهم المجتمع ..

ثم تصورهم مرة أخرى يتعاونون ، ولكنهم يتعاونون على الاثم
والعدوان ، وأنت تعرف أن الآثام هى الذنوب ، وان العدوان هو
تجاوز الحد الذى ينبغى التزامه ، هل يمكن أن يســعد الناس فى
هذا المجتمع ، أو يسعد بمثل هؤلاء مجتمع ؟ ان المجتمع السعيد
شىء آخــر .. مجتمع أفراده سعداء ، يحبون الخير ويفعلونــه ،
وينهون عن المنكر ويتجنبونه ، ويسأل كل منهم نفســه ، ماذا قدمت
لهذا المجتمع ؟ ماذا أضفت ؟ ويحرص كل منهم على أن يضيف
شــيئا ، فلا خيـر فيمـن لا يضـيف ، يحـدث كل منهم نفســه

وكن على الدهر معوانا الذى أمل   يرجو نوالك ، ان الحر معوان

مجتمع التكافل هذا السعيد ، هو مجتمع المؤمنين الصادقين ،
يكثرون عند الفزع ، ويقلون عند الطمع ، يربط الحب قلوبهم ،
ويرفع التعاون شأنهم .

مجتمع التكافل هذا السـعيد .. الا تفعلوه ، تكن فتنـة فى
الأرض وفســاد عريض .

الفصـــل الـرابــع

(التـراحــم)

هل الرحمة مشتقة من الرحم ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟

أما أصحاب الفلسـفة المادية ، وأنصـار التفسير المـادى للتاريخ ، فيؤكدون دائما أن المادى هو الاصل ، وأن الرحمة مشتقة من الرحــم ، فالأصل ان الاخوة يتراحمون لأنهم أبناء رحم واحـد ثم اتسع التراحم ليشمل أبناء الاسـرة الواحدة ، أو ما يسـمى بأولى الارحام ، ولكننا لا نأخذ بهذا التفسير ، لأننا نحترم القاعدة الأصولية المعروفة (لا اجتهاد مع النص) وأمامنا نص واضـح وقطعى ، أمامنا حديث صحيح قدسى (أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لهــا اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعهــا قطعتــه) •

كما أن العقل والمنطق لا يستسيغان أن تكون الرحمة وهى السابقة على خلق العالم كله ، مشتقة من الرحم • ان الله سبحانه خلقنا برحمته ، فلا يصدق العقل ولا يستسيغ المنطق أن تكون هذه الرحمة وهى صفة من صفات الله سبحانه ، مشتقة من الرحم •• ، فالعقل والنقل كلاهما ينكر هذا التفسير المادى للتاريخ

وليست الرحمة قاصرة على أولى الأرحام بالمعنى المادى ، فالعلم رحم بين أهله، ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، ليست رحمته قاصرة على بنى هاشم ، أو محدودة فى قريش ، أو موقوفة على العرب •

وحتى لو اعتبرنا الانسانية كلها تنتمى لرحم واحد ، وهو المبدأ الذى نؤمن بــه (**يايهــا الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى**

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (١) فان هذا أيضا لا يتسع للرحمة العامة ، ولا يستوعب الرفق بالحيوان ، ولا يفسر لنا كيف دخلت أمرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، كما أنه لا يعطينا التفسير المقنع لاستحقاق رجل آخر الجنة ، لأنه رأى كلبا يلهث ، يلعق الثرى من العطش ، فنزل البئر وملأ نعله بالماء وأمسكه بفمه لانشغال يديه فى الصعود من البئر ، وسقى الكلب الظامىء ، فنظر الله له ، فغفر له ٠

كل هذه وقائع ثابتة ، تؤكد أن الرحمة والرفق بالحيوان صفة السعداء أصحاب الجنة ، وان القسوة وانعدام الاحساس بالرحمة صفة الاشقياء أصحاب النار ٠

فالتفسير الذى يتفق مع العقل والنقل والوقائع وشواهد التاريخ ، هو أن الرحمة هى الأصل وليست الرحم ، رحمة الله التى وسعت كل شىء هى الأصل ، وأنه سبحانه وهب مخلوقاته جزءا من رحمته فبه يتراحمون ، وبه ترفع الماشية ظلفها عن رضيعها رحمة به ، فهل ييأس من رحمة الله عاقل ، بعد أن علمنا ان كل الرحمة التى وهبها الله لسائر مخلوقاته ، جزء من مائة جزء من رحمته سبحانه ؟ ٠

ومما لا شك فيه أن نصيب كل مخلوق من هذه الرحمة يختلف عن نصيب الآخر ، ومما لا شك فيه أيضا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان صاحب النصيب الأعظم ، ومما لا شك فيه كذلك

---

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات ٠

ان شاعر العروبة والاسلام (٢) رغم بلاغته وبراعته ، لم يوفه صلى الله عليه وسلم حقه حين قال في رحمته :

فاذا رحمت فانت أم او أب   هذان فى الدنيا هما الرحماء

ان حادثة زيد بن حارثة تؤكد أنه صلى الله عليه وسلم كان أرحم بالانسان من أبيه وأمه (٣) .

وكما عرفت فى فصل التعاون ان الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، فلتعرف هنا ان الراحمين يرحمهم الرحمن .

---

(٢) امير الشعراء احمد شوقى .

(٣) ضل زيد طريقه فى طفولته فخطفه جماعة من العرب وباعوه ، ثم اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ووهبته خديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم وكان أهل زيد يبحثون عنه فى كل مكان وبعد سنوات عرفوا ان ابنهم فى مكة عند محمد بن عبد الله . وكان ذلك قبل النبوة ، فلما رأى محمد صلى الله عليه وسلم حرارة اللقاء بين زيد وأبيه وعمه وعرض عليه الرجلان أن يدفعا ما يريد من مال ليأخذا زيدا ، قال عليه الصلاة والسلام ، لا أريد فيه مالا ، وهو بالخيار ، ان شاء مكث عندنا وان شاء ذهب معكما ، وفوجىء الرجلان بأن زيدا يرفض العودة معهما ، ويقول لهما : ما رأيت حبا ولا عطفا ولا شفقة ولا رحمة كما رأيت من هذا الرجل ، انه أرحم بى من أبى وأمى ، وعاد الرجلان دون أن يستطيعا اقناع الفتى بالعودة معهما ، ثم أعتقه محمد وتبناه ، وقصته بعد ذلك معروفة ... زواجه من زينب بنت جحش ، ثم طلاقها منه ، وزواجها من محمد صلى الله عليه وسلم بأمر من السماء ، ليعلم الناس أن زوجة الابن بالتبنى ليست محرمة كزوجة الابن من الصلب .. بل ومنع التبنى (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ومن يومها أصبح اسمه زيد بن حارثة بعد أن كان يدعى زيد بن محمد .

ولعلك قد سمعت من بين ما سمعت من مأثور الكلم (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) ٠

الرحمة اذن هى سمة الانسانية الراقية ، وهى ركن ركين فى بناء السعادة الانسانية وهى خلق كريم من أخلاق الأنبياء والصالحين ٠

أما الرحمة الآلهية فأمر هائل ، أن كل الرحمة فى هذه الأرض ، رحمة الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الرحماء والمحببن ، ورحمة الحكام بالمحكومين ، ورحمة الطير بفراخه والحيوان بصغاره ، كل ذلك جزء من مائة جزء من رحمته سبحانه ٠

كان أحد الصحابة يمشى فى طريق قريب من المدينة ، فوجد عشا من أعشاش الطير به أفراخ صغيرة ، فخلع رداءه ، وأفرغ فيه كل ما فى العش ٠٠ وبعد لحظات وجد أم الفراخ تحلق فوق رأسه وتتبعه أينما سار ، فخطرت له فكرة ، لماذا لا يتوقف ويفتح الرداء ليرى ما تفعل الأم ، انه مطمئن ان الفراخ لا تسطيع الطيران، ونفذ فكرته ٠٠ فوقعت أم الفراخ على صغارها لا تريد أن تبرح ، فأخذها الصحابى ، وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له متعجبا مما فعلته الأم ، فابتسم عليه الصلاه والسلام ، وقال له افتح الرداء ، ودهش القوم حينما رأوا أم الفراخ لا تريد أن تطير ، لا تزيد أن تفارق الأسر وتترك صغارها ٠٠ وكانت فرصة مناسبة لدرس عظيم حيث قال عليه الصلاة والسلام لصحابته، أتعجبون من رحمة أم الفراخ بصغارها ؟ والذى نفسى بيده ، لله أرحم بكم من هذه الأم بأفراخها ٠٠٠

هل عرفت الآن لماذا نبدأ أقوالنا وأفعالنا « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ وهل عرفت لماذا اختار لنا سبحانه وتعالى

من بين اسمائه الحسنى هذين الاسمين فى البسملة ٠٠؟ «الرحمن الرحيم» وهل عرفت لماذا كان خاتم النبيين هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، ولماذا أرسله ربه ؟ ولماذا أجهد محمد نفسه ونادى صحابته لانقاذ الناس من شرور أنفسهم وسيئات اعمالهم ؟ ان اردت أن تعرف ذلك فاقرأ وتمعن فى قول الله سبحانه لنبيه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (٤) ٠

والا ، فلماذا أرسله يجاهد ، وينذر ويبشر ، ويوجه ويضرب للناس المثل ، أعلى مثل وأروع مثل ؟ ! وقد استوعب الصحابة الدرس فارتقى بهم المستوى الانسانى ، فهذا عمر بن الخطاب وقد كان جبارا فى الجاهلية ، كانت الدموع تنهمر من عينيه كالطفل اذا رأى انسانا يتألم ٠

هل تعرف انه اراد مرة أن يعين واليا فأرسل اليه ، وبينما هم جلوس دخل صبى صغير فجلس فى حجر جده عمر ، وفوجىء المرشح للولاية بأن عمر يهش فى وجه الطفل ويقبله ويداعبه فقال : أتفعل هذا يا أمير المؤمنين ؟ والله ان لى عشرة أولاد ما قبلت منهم أحدا ، ولا يجرؤ أحدهم ان يدنو منى ، فأجابه عمر (وماذا تفعل اذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك ؟ انما يرحم الله من عباده الرحماء) ثم عدل عن ترشيحه للولاية وقال (انه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟) ان مهمة الراعى أن يرحم الرعية ، ولذلك سمى راعيا ، لأنه يرعى أمورهم ، ولذلك كانت الرحمة مقياسا لصلاحية الراعى أو عدم صلاحيته ، الرحمة سعادة ورقى ،

---

(٤) الاية رقم ١٠٧ من سورة الانبياء

الرحمة مدنية وتقدم ، بينما القسوة شقاء وتخلف ، القسوة بعيدة عن الايمان ، قريبة من الفسق ، ولذلك فان المؤمنين يحذرونها ويحذرونه ، وينأون عنها ويجتنبونه ، لكى لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، بل يعتبرون بما حدث للأمم من قبلهم ، ممن أسبغ الله عليهم نعمة ظاهرة وباطنة ، ثم قست قلوبهم بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، انظر ، ان القسوة عقوبة تحل بالأقوام ان كفروا بأنعم الله ، ثم فكر فى صلة هذه القسوة بما يزعمون من أنهم شعب الله المختار ، ان هذا الزعم نفسه قسوة ، قسوة على غيرهم من الشعوب والاجناس، ثم أنظر الى التعبير القرآنى المعجز (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**) (٥) أنظر ، ليست هذه كتلك ، اننا لا نغلق باب الهداية فى وجه غيرنا من الناس ، وانما نحب أن يسعد غيرنا كما نسعد ، وان يشترك الناس جميعا معنا فى هذا الخير ، ان خير أمة أخرجت للناس لا تعنى العرب ، وانما تعنى كل المسلمين ، كل من أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر وآمنوا بالله ، وباب الدخول فى هذه الأمة ـ خير أمة أخرجت للناس ـ مفتوح على مصراعيه ، لا يملك أحد أن يمنع غيره من الدخول فيه ، ولا أن يطرد أحدا بعد الدخول فيه ، انه ملك للانسانية كلها ، وليس ملكا لأحد بعينه ، ان الباب مفتوح دائما ، مفتوح لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، مفتوح يناديكم فأقبلوا ، كما ينادى كل المسلمين بالفعل أو بالاستعداد ان يتراحموا (**فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم**) (٦) ٠

---

(٥) الآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران

(٦) الآية رقم ٢٢ من سورة محمد ٠

لا ، انتهينا يا ربنا انتهينــا ، وعرفنا طريق السعادة كمــا علمتنا ، عرفنا طريقنا فى الحياة ، وعرفنا أهدافنا من الحياة ٠

أهــداف كل مســـلم	فى كل هــذا العــالم
ان ينشــر الفضــائلا	وأن يظــل قائــلا
الــدين فى التراحــم	الدين فى التراحــم

الدين فى التراحــم (٧)

---

(٧) آخر ابيات النشيد الذى كتبته ليكون نشيد الجمعية العالمية للمسلمين · جمعية « كل مسلم » ٠

الفصـــل الخـامس

أعـــدلــــوا

كان محمد شبابا فى العشرين من عمره حينما سمع صوتا من بعيـد :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر

وأسرع القوم الى مصدر الصوت، الى جبل أبى قبيس، ورأى محمد القوم الى مصدر الصوت ، الى جبل أبى قبيس ، ورأى محمد جمعا جمعا من الناس يسألون المنادى : ما شأنك ؟ فقال انه جاء الى مكة تاجرا يبيع سلعته ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، وما زال يماطل فى دفع الثمن ··· فقال بعض الناس لبعض : وماذا نفعل ؟ هل نستطيع أن نفعل شيئا مع العاص بن وائل ؟! ·

واستغرب الغريب ، وهل يعجز هذا الجمع كله عن أخذ حقه من هذا الظالم ؟ وسمع الناس صوتا يقول تعالوا نجتمع ·

وذهب الملأ من قريش الى دار عبد الله بن جدعان ، وتعاهدوا على عقد حلف أسموه بحلف الفضول ، ينتصرون فيه للمظلوم ، ويقفون صفا واحدا فى وجه الظالم حتى يأخذوا للمظلوم حقه ··· وحضـر محمد قبل بعثته هـذا الحلف ، وخرجوا الى دار العاص بن وائل ، فلما رآهم ورأى التاجر بينهم فهم كل شىء ··· وبادر بدفع ما عليه ، وكان هذا أول تطبيق عملى لحلف الفضول فى اليوم الذى عقـد فيـه ·

وبقى حلف الفضول ··· وبعد ما يقرب من أربعين سنة جاء ذكره بالمدينة ، فقال محمد صلىّ اللّهُ عليْهِ وسَلّمَ « لقـد حضرت

حلفا بدار عبد الله بن جدعان ••• ولو دعيت اليه فى الاسلام لاجبت) أى أن مبادئه تتفق تماما مع مبادىء الاسلام : نصرة المظلوم وردع الظالم • وهل تشقى البشرية الا بالظلم ، وتعانى ما تعانى الا من الظالمين ؟ •

من أجل ذلك نقرأ فى الحديث القدسى عن الله سبحانه وتعالى (يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم حراما فلا تظالموا •••) •

أنظر ••• انه سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه ، وهل يمكن غير ذلك ؟ هل يمكن أن يظلم ربك ؟! كلا ، ولا يظلم ربك أحدا ، ولا يظلم ربك أبدا ، وهل يمكن أن يحرم عليه أحد شيئا ؟ أستغفر الله ، ومن ذا الذى يحرم شيئا على الله ؟ انه سبحانه وتعالى هو الذى حرم الظلم على نفسه •

ولا يستطيع أحد أن يلزمه بشىء سبحانه هو الذى ألزم نفسه بالرحمة (**كتب ربكم على نفسه الرحمة** (١) هذان أمران تفضل الله سبحانه فألزم نفسه بهما ، **كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم** (٢) أما سنن الله الكونية ، فانها وان كانت ثابتة لا تتخلف (**ولن تجد لسنة الله تبديلا**) (٣) الا أنه سبحانه وتعالى لم يلزم نفسه بها ، ومن هنا كانت المعجزات خرقا للنواميس ، خرقا لهذه السنن ، وكانت دليلا على أنها من عند الله ، خالق النواميس ، والقادر وحده على خرقها ، القادر على أن يجعل النار لا تحرق ابراهيم ، والبحر لا يغرق موسى

---

(١) الآية رقم ٥٤ من سورة الانعام

(٢) انظر كتاب كل مسلم للمؤلف •

(٣) الآية رقم ٦٢ من سورة الاحزاب

ومما لا شك فيه أن حديثنا عن العدل لا يكون متكاملا الا بحديث عن الظلم ، فما العدل الا مقاومة الظلم ، ووضع الحق فى نصابه ، ودعك من هذيان المخرفين الذين يدعون ان المساواة فى الظلم عدل · ان العدل لا يتحقق مع وجود الظلم أصلا ، ولا يجمتمع معه مطلقا ، ان العدل هو محو الظلم وابادته ، وابعاد شبحه البغيض وازالته ، وأنا أعرف أن المثل قد يعنى شيئا آخر ، قد يعنى ان المساواة فى التضحيات عند التعرض للأزمات عدل ، وبذلك يكون المثل صحيحا ، وقد فعلها عمر بن الخطاب نفسه فى عام الرمادة ، حينما فرض على نفسه ان يأكل كما يأكل عامة المسلمين ، وامتنع عن طهى طعامه بالسمن حتى ظهر ذلك فى وجهه ، كما أثر الطعام المطهى بالزيت فى معدته ، وكان يسمع بطنه تقرقر فيقول لها (قرقرى أولا تقرقرى فلن آكل السمن حتى يأكله سائر المسلمين) وضرب بذلك أعلى مثل فى العدل ·

أما ان تسمى التضحيات ظلما ، وان تطلب المساواة بين الناس فى توزيع الظلم ، وأن يعتبر ذلك نوعا من العدل ، فهو تفكير غير انسانى · وقد سبق ان عرفت صلة الظلم بالظلمات ، والحديث فى ذلك واضح وصريح (الظلم ظلمات يوم القيامة) ·

ولو انك نظرت الى العدل بمعناه الواسع ، والى الظلم بمعناه الواسع ، لوجدت أمرين فى غاية الاهمية :

أولهما : ان كل ما يأمر به الاسلام يندرج تحت العدل بمعناه الواسع ، وأن كل ما ينهى عنه الاسلام يندرج تحت الظلم بمعناه الواسع ·

ثانيهما : ان كل ما يسعد به الانسان يتضمنه العدل بمعناه

الواسع ، وان كل ما يشقى بـه الانسان يتضمنه الظلم بمعناه الواسـع .

فأما أول الأمرين فواضح غاية الوضوح من كل ما أمر بـه الاسلام ودعا اليـه ، فالاسلام يدعو أول ما يدعو الى توحيد الله ، وهذا هو العدل بعينه ، لانه سبحانه وتعالى هو الذى خلقك ورزقك ورعاك ولا يزال يرزقك ويرعاك ، فالعدل ان تعبده شكرا على مـا أنعم ، والظلم ان تشرك بـه ما لا يخلق ولا يرزق ولا يمـلك لك من اللـه شيئا (**ان الشرك لظلم عظيم**) (٤) ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى حديث قدسى (انى والجن والانس فى نبأ عظيم ! أخلق ويعبـد غيـرى .. ؟) .

ثم يدعوك الاسلام الى بر الوالدين، وبر الوالدين عدل . وينهاك عن عقوقهما لأن عقوقهما ظلم أى ظلم . ويدعوك ان ترعى بيتك والا تضيع من تعول (٥) . فرعاية الزوج والأولاد عدل ، واهمالهم أو الجور فى معاملتهم ظلم أى ظلم

بـل ان الاسلام يحذرك من ان تظلم نفسك ، وقد يختلط على بعض الناس ظلم النفس وهو ظلم حقيقى ، يختلط على بعض الناس بمعنى الايثار وهو شىء آخر ، شىء عظيم ونبيل ، وقد كان الصحابة يحبون الايثار ويتعـاملون بـه فيما بينهم (**ويؤثرون على أنفسـهم ولو كان بهم خصاصة**) (٦) وقـد عجب الصحابة حينما سـمعوا رسول الله يحـذر الانسان ان يظلم نفسه ، عجبوا لأنهم يرون الظالم

---

(٤) الآية رقم ١٣ من سورة لقمان .

(٥) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعـول) .

(٦) الآية رقم ٩ من سورة الحشر .

يظلم الآخرين ليزيد فى ثرائه أو جاهه أو منصبه ، يظلم من أجل نفسه ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف يظلم الانسان نفسه ؟ فضرب لهم صلى الله عليه وسلم مثلا فى غاية الوضوح ، سألهم عن رجل جعل المال كل همه ، يسلك فى جمعه كل سبيل ، يجمع المال من حرام أو حلال ، لا يهتم الا بان يستكثر من جمع المال ، ومات بعيد أن تحقق له ما أراد ، وورثه ابن له صالح ، فأحسن التصرف فيما ورث ، وأنفقه فى وجهه الصحيح ، كيف يكون مصير هذين الرجلين ؟ أما الابن فمصيره الى الجنة ، وأما الأب فمصيره الى النار ، من الذى ظلم هذا الأب ؟ لا أحد ، انما ظلم نفسه .

وأما الأمر الثانى وهو أن كل ما يسعد به الانسان يتضمنه العدل بمعناه الواسع ، وأن كل ما يشقى به الانسان يتضمنه الظلم بمعناه الواسع ، فهو أمر بديهى

وليس يصح فى الاذهان شيء　　　اذا احتاج النهار الى دليل

فاذا كانت هناك نفوس مريضة تسعد بالظلم وترضاه ، وتشقى بالعدل وتأباه ، فان هؤلاء فى حاجة الى علاج ، أما تركهم ينشرون الظلم ويؤيدون أهله ، ويخربون المجتمع ويفزعون أفراده ، فذلك هو الفساد الكبير ، ومعروف أن الفساد الكبير هو ان يقوى الباطل ، وان يضعف الحق (**والله لا يحب الفساد**) (١) فاذا وصلت الأمور فى مجتمع الى هذا الحد ، فقد تودع منهم .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه المجتمع بركاب سفينة ، فاذا كان من هؤلاء الركاب من يريدون خرق السفينة ، فماذا يكون موقف الآخرين ؟ .

---

(١) الاية رقم ٢٠٥ من سورة البقرة

ان تركوهم دون ان يمنعوهم ويردعوهم هلكوا ، وهلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا ٠

وقد تعود الناس ان يكون الظلم من القوى للضعيف ، من الحاكم ذى السلطان للمحكومين الذين لا يملكون سلطانا ، من المدير المستند الى منصبه لمرءوسيه الذين لا يستندون الى منصب ، من الرجل للمرأة ، من الأب للابناء الضعفاء ، ومن الابناء الاقوياء لآبائهم الذين بلغوا عندهم الكبر ٠ كل هذه انحرافات معروفة ومظالم واضحة ، ولكن النفوس السوية لا تغرها القوة ، ولا تغريها بالظلم ، بل تسخر هذه القوة لمساعدة الضعفاء وحماية المظلوم ، وتدعو الله ان يجعل قوتها فى طاعته وضعفها عن معصيته ، ومع ذلك فقد تعود الناس ان يروا ظلم القوى للضعيف ، ولم يفطنوا الى أن الضعيف كثيرا ما يظلم القوى ، فقد تخفى على كثير من الناس هذه الصورة من صور الظلم ، ظلم الضعفاء للاقوياء ، ظلم المحكومين للحاكم ، اذا كان يبذل جهده لاقامة العدل بين الرعية ، ولحماية الأمور الخمسة الأساسية ، وهى الامور التى لا يسعد فرد ولا يسعد مجتمع الا اذا حرص على حمايتها كل الحرص ، حماية الدين والنفس وحماية الأهل والعرض والمال ٠ اذا كان الحاكم يؤدى واجبه كأحسن ما يكون الاداء فى حماية هذه الأمور ، ويرعى الله فى حكمه ، ثم يظلمه الناس ، فينكرون عليه جهده ، ويظنون انه يعيش فى برجه العاجى ، وأن هذه الأمور تتحقق من تلقاء نفسها ، فالحاكم حينئذ يكون مظلوما مع شعبه ، وقد يرى نفسه مضطرا الى كثرة الحديث عن جهده ، وتسخير أجهزة الاعلام لهذا الحديث ، بدلا من أن يترك أعماله تتحدث عن نفسها ٠

وأوضح ما يكون تزعما لهذا النوع من الظلم ما يسمونه فى الدوائر الحكومية بالرجل الثانى : ذلك الرجل الذى يحاول غالبا أن

ينسب لنفسه كل نجاح تحقق الهيئة ، والى رئيسه كل فشل يلحق بهـا ، بل انـه كثيرا ما يحـاول اثارة المتاعب والشـغب ، ليثبت للمسئولين الكبار أن رئيسه غير قادر على ادارة الهيئة ، انه بكل صراحة طامع فى منصب رئيسه ، متطلع الى اليوم الذى يحـل فيـه مكانه ٠

ان أمثلة الظلم من أدنى الى أعلى كثيرة ، فقـد يظلم الابناء عائلهم ، وتظـلم الرعيـة راعيهـا ، ويظلم الخادم مخدومه ، وقـد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى بـه ، ويذكرنا كل هذا بأبيات عميقة الأثـر فى نفس الكريم ، قالها أبو الطيب عن بعض هؤلاء الاعوان ، الذين كانوا على النقيض مما ينبغى لهم :

واخوان تخذتهم دروعـا فكانوها ولكن للاعادى

وخلتم سهاما صائبات فكانوها ولكن فى فؤادى

فقد تنقلب الآية ، ويصبح الضعيف خائنا ، والخيانة ظلم من أبشع أنواع الظلم ، وفى الحياة الزوجية ليس حتما أن يكون الرجل دائما هو الظالم ، فقـد يحدث العكس ، ان الرجل الكريم يـرى أن قوامته على المرأة معناها بسط حمايته عليهـا ، وادخال السـرور على نفسـها ، وجعلها تشـعر دائما ان ظـلة الوارف يحميها من الهجير ، وحتى حينما يرى منهـا زلـة لسان أو هفوة من الهفوات التى لا يخلو منها انسان ، فانها تجـد من سعة صدره ، وسماحة نفسه ما يستوعب ذلك (ولأن أكون كريما مغلوبا خير من أن أكون لئيما غالبـا)

فاذا قابلت المرأة بالتقدير سماحته ، وعاشت سعيدة فى ظل حمايته لهـا من شرور نفسـه وثورات غضبه بنفس الدرجـة التى

يحميها بها من غيره ؛ فتلك أسـرة سعيدة بعيدة عن الظلم بشتى صـوره ، أما الاسـرة التى يتبادل فيهـا الزوجان التظالم ، فتلك أسـرة تشقى نفسها وأولادها ومن حولها من أهل وعشيرة ٠

هـل رأيت كيف يتنوع الظـلم ويتفرع ، كما يتنوع العـدل ويتفرع ؟! ان الظلم لـه أصـل واحد ولكن صوره متنوعة ، وكذلك العـدل ٠

فالعدل مع الله أن تعبده ولا تشـرك بـه شيئا ، والعدل مع الوالدين ان تبرهما ولا تقول لهما أف ولا تنهرهما ، والعدل مـع الزوج والولد ان ترعى أسرتك وتحمى نبتها الجديد من كل الآفات . والعدل مع رئيسـك الا تنكر جهوده ولا تثيـر من حوله الشـبهات بالباطـل ، ومـع مرءوسك أن تقدر عمـله وتعامله معامـلة الأخ والصديق ، ومع المتعاملين معك ان تهش فى وجوههم وتبذل مـا تسـتطيع لقضاء حاجاتهم ، وان تذكر دائمـا ان حاجة الناس اليك نعمة من الله عليك ٠

ولكننـا مع ذلك لا نتجاهل ان أعلى صور العدل بعد توحيد الله وعبادته هى عدل الحاكم ، ولا نسـتطيع فى هذا المجال ان ننسى ان الامام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظـل الا ظله (٨) ٠ انه أول هؤلاء السبعة لأنه أعظمهم أثرا فى حيـاة الناس ، وانت تعرف ان عدل الامام ينتفع بـه خلق كثير ، ويسـعد

---

(٨) قال صلى الله عليه وسلم : (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبـه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليـه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليـه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عينـاه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله ، ورجل تصدق فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما قدمت يمناه) صدق رسول الله ٠

به خلق كثير ، وأن ظلم الامام يصطلى بناره خلق كثير ، ويشقى به خلق كثير ، ولعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان أكثر الحكام حساسية للعدل فقد روى أن سعد بن الربيع دخل على مجلس عمر ، فأكرمه عمر وقربه اليه ، وتصادف أن تجشأ عمر ، وشكا طعاما غليظا أكله ، فقال سعد : يا أمير المؤمنين وكيف تأكل غليظ الطعام ؟! ان أولى الناس بمطعم طيب ومشرب طيب ومركب طيب لأنت • فما كان من عمر الا أن تناول درته وضرب بها سعد بن الربيع وقال له ما أردت بذلك الا مقاربتي ، وقد كنت أحسب فيك خيرا • كيف ترى انى أحق الناس بأطيب الطعام والشراب والمركب ؟! أتعرف مثلى ومثل هؤلاء ؟ — يقصد جماعة المسلمين — ان مثلى ومثلهم كمثل قوم سافروا ، فجمعوا أموالهم وأعطوها لواحد منهم ليتولى الانفاق عليهم فى سفرهم ، هل له أن يستأثر دونهم بشىء ؟ قال سعد : لا ، قال عمر فكذلك أنا •

كما اننا لا نستطيع بعد الاشارة الى عدل الامام ان ننسى عدل القاضى ، وهو من الامور الجوهرية فى حياة المجتمع ، ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أشد التحذير وأقواه ، من ان يختل الميزان فى يد القضاء ، فيقول مبشرا ومنذرا (قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، قاض عرف الحق وحكم به فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق ولم يحكم به فهو فى النار ، وقاض لم يعرف الحق ولم يحكم به فهو فى النار) ان القاضى الثالث لم يبذل جهدا لمعرفة الحق وسارع بالحكم مستهينا بمصالح الناس ، ولذلك فهو أيضا فى النار

ولعلك تعترف بقصة الامام ابى حنيفة عندما عرض عليه القضاء فرفضه تعرف ان الخليفة أرسل اليه وعرض عليه القضاء فاذا بنا نراه رغم علمه الغزير يدعوه ورعه وخوفه من هذا النذير الى الاعتذار عن تولى القضاء ، والى التمسك بهذا الاعتذار ، ولكن بماذا اعتذر الامام ؟ لقد قال للخليفة أنا لا أصلح

للقضاء ، وضاق الخليفة بهذا الاعتذار كما ضاق بهذا التواضع ، واعتبر ذلك من أبى حنيفة خذلانا لأمله ، ورفضا لمسئوليته كعالم وأمين ، فقال كلمة ما كان ينبغى للخليفة ان يقولها ، قال لأبى حنيفة (أنت لا تصلح ؟!٠٠٠ هذا كذب) أما ابو حنيفة فقد كان كل همه أن يعتذر ، فانتهزها فرصة لتأكيد اعتذاره ، وقال للخليفة : وكيف يصلح كذاب للقضاء ؟ لقد قرر الخليفة بنفسه أنى لا أصلح ٠

يا سبحان الله ! انى أعرف كثيرا من الناس ، ولعلك أيضا تعرف الكثيرين منهم ، لم يصل علمهم الى معشار علم أبى حنيفة وهم يسعون كل السعى الى منصب القضاء ، يتسابقون اليه ! وأرجوك أن تقف معى وأن تسأل الله ان يجعلهم من قضاة النوع الأول ، من أهل الجنة ، وأن يذكروا ـ كما يذكر الامام العادل ـ قول الله سبحانه (**واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**) (٩) ، فان ذلك يعود علينا وعلى المجتمع كله بالنفع ، ويهيىء لنا وللمجتمع كله فرصة أكبر للاطمئنان الى عدل القضاء ، والانضمام الى مجتمع السعداء ٠

ان منصب القضاء من أخطر المناصب وأعظمها شأنا ولذلك يجمع المصلحون فى كل عصر وفى كل قطر على ضرورة استقلال القضاء ٠

ومما لا شك فيه اننا اذا أردنا للقضاة أن يحكموا بالعدل فلا بد أن نساعدهم فى تخطى العقبات الكئود ، وازالة العراقيل البغيضة التى تسد الطريق ، فان شهود الزور قد برعوا فى تضليل العدالة ، ولا بد من تذكيرهم ببشاعة جرمهم ، أن شهادة الزور هى الجريمة الوحيدة التى اقترنت فى آيات القرآن الكريم بالشرك وعبادة الأوثان ، (**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا**

---

(٩) الآية رقم ٥٨ من سورة النساء ٠

قــول الــزور) (١٠) وهى الجريمة التى جعلت رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم يغضب أشـد الغضب حتى يظهر ذلك فى وجهــه ، وحتى يتمنى الصحابة لو انه سكت ، فقـد روى انـه صلى اللـه عليه وسلم كان متكئا ، وكان يتحدث فى هدوء ، حتى اذا جاء ذكر الزور أنفعل عليه الصلاة والسلام ، فنحن نقــرأ تصوير ذلك فيمـا نقــرأ من أحاديث ، نقرأ أنــه صلى الله عليه وسلم كان يتحـدث عن الكبائر بـل عن أكبر الكبائر فقال (هل أدلكم على أكبر الكبائر ؟ الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وكان متكئا فجلس ، وقال الا وشهادة الزور ، الا وقول الزور ، وما زال يكررها حتى تمنينا لو أنــه سكت) •

كما ان حرص بعض المحامين على كسب القضايا كثيرا مـا يدعوهم الى الوقوف فى وجه العدل ، وينسيهم ان قدسية رسالتم تنبع من دفاعهم عن الحق ، ودأبهم على بحث أدلتــه ، وجهـادهم فى اثبات براهينه ، وبلاغتهم فى الكشف عن وجوه الحق فى ساحة القضــاء •

و لايخفى على ذكائك ما تراه فى كل مكان من باطل يتبجح ، ومن حــق يستصرخك أن تنصـره وان تقف معــه ، لا يخفى على ذكائك حق الناس فى ثمــار أعمالهم ، سواء أكانوا من صديقك أو عدوك (ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقــوى (١١) هو أقرب للتقوى واجدر بالانسان الكريم والمجتمــع السعيد ، فما افلح قوم ضــاع الحق بينهم ، حتى ولو كان صاحب الحق ليس من أوليائهم ، ليس من جنسهم ، فالانسان لا يكمل ايمانه ، ولا تكمل مروئته ، حتى يأمنه عدوه ، ولن يأمنك عدوك الا باطمئنانه الى حبك للعدل •

---

(١٠) الآية رقم ٣٠ من سورة الحج •

(١١) الآية رقم ٨ من سورة المائدة •

ان العدل يحتم عليك توحيد المقياس ، واعتدال الميزان ، ومن الظل الذى يصيب ميزان العدالة ما لاحظه أحد الشعراء من خلل الميزان فى يد صديق له ، كان يندبه لكل شدة وينساه فى كل خير ، وكان لهما ثالث محظوظ يسمى (جندبا) كان يدعى دائما فى المناسبات السعيدة ، فصاح الشاعر المغيظ :

واذا تكون فجيعة أدعى لها   واذا يحاس الحيس يدعى جندب !

أخى المسلم ، أختى المسلمة :

ان المجتمع السعيد القائم على العدل يسد كل هذه الثغرات ، ويحطم كل هذه العراقيل ، ويقضى على الحواجز البغيضة التى تفرق بين الانسان وأخيه الانسان ، مجتمع يلتقى فيه المؤمن بالمؤمن من أى لون ، من أى جنس، يلتقون أخوة متحابين ، وقد حطم الاسلام ما بينهم من الحواجز المصطنعة ، من قوميات ، واجناس ، وألوان ... وحد العدل بينهم فى الميزان (**هل جزاء الاحسان الا الاحسان**) (١٢) .

ايها السعداء والاشقياء : انظروا الى هاتين الصورتين لتروا بشاعة الظلم وجمال العدل متجاورين ، انظروا الى ما وصل اليه طغيان الاشقياء من بنى أمية ، وما أشرقت به شمس العدل فى عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، مع أنه من بنى أمية :

لقد كانت تعليمات خلفاء بنى أمية تقضى بأن يختم خطباء

---

(١٢) الاية رقم ٦٠ من سورة الرحمن

المساجد خطبة الجمعة كل أسبوع بسبب أبى تراب (١٣) ، خطب الجمعة على منابر المسلمين تختم بسبب الامام على ، وانت تعرف من هو الامام على ٠

وتولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة ، ومنع هذه الدناءة،وجعلكم تسمعون فى نهاية كل خطبة فوق مئات الألوف من المنابر فى المساجد العامرة بالايمان قول الله سبحانه ، وهو القول الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لتختم به خطبة الجمعة ، والذى نختاره لنختم به هذا الفصل عن العدل ، والذى تسمعه من ملايين الخطباء على منابر الحق : **(ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون)** (١٤) ٠

---

(١٣) لقب للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ٠

(١٤) الاية رقم ٩٠ من سورة النحل ٠

الفصـــل الســـادس

تاليــف القلــوب

هل تصدق ان مجتمعا يضم نسبة كبيرة من المثقفين الاذكياء المهرة ، الذين ينجح كل منهم فى حياته الخاصـة كفرد ، وتظهـر كفاءته ، وتبدو براعته ، ويتاكد امتيازه اذا خرج الى أى مجتمـع فى أيـة قارة ، ولكنهم مع ذلك يفشـلون فى تكوين مجتمع سـعيد فيمـا بينهـم ؟! ٠

أنا رأيت ذلك المجتمع ، وعشت هـذه التجربة العجيبة ، وكنت دائم التفكير فى هـذه المأساة ، وفى البحث عن سبب دنيوى منطقى لسوء العلاقات فى ذلك المجتمع ، أما الاسباب الاخرى التى يرددها كثير منهم كغضب الله وعدم توفيقه ، فهى أيضا تدعو الى البحـث عن أسبابها ، فلم يغضب الله على قوم ويحرمهم التوفيق ؟ لا بـد من أسباب (**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**) (١) ولما كنت واثقا من أن المجتمع المؤمن لا بد أن يكون سـعيدا ، الا اذا تخلى عن أمور جوهرية فى ايمانه ، فقـد عزوت فشل هذا المجتمع الى ضعف الوازع الدينى ، الى فسـاد ذات البين ، وأنت تعرف أن فساد ذات البين هى الحالقة ٠

وقد حضرت نـدوة حول هـذا الموضوع فاذا أحـد الوزراء السابقين وهو أستاذ فى التربية ، يزعم ان الناس يعرفون دينهم ولكن تنقصهم التربية ٠٠٠ وفى الحق انى لا أتهم هـذا المجتمع بالجهل

---

(١) والآية رقم ١١٧ من سورة هود ، والقرى هنا تعنى المجتمعات ٠

فى أمور الدين ، ولا أوافق السيد الوزير(٢)على أن أصول التربية وعلم النفس هى المنقذ من هذه المأساة ٠

ولكنى أعتقد أن المجتمع الذى فشل فى تحقيق السعادة الاجتماعية مع امتياز أفراده ، لا يجيد تأليف القلوب ، ولا يريد حسن العلاقات الأخوية ، ولست أقصد بالعلاقات تلك الدبلوماسية المستوردة التى يمثلها الناس تمثيلا ، والتى يعرف الجميع أنها تمثيل بلا روح ، وانما أقصد العلاقات الأخوية ، العلاقات النابعة من حب حقيقى للخير ، من سلامة الصدر ، من المشاركة الوجدانية الصادقة ، العلاقات الاخوية التى جعلها الاسلام شرطا للايمان ، وللسعادة بثمار الايمان (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم)

السلام هنا ليس مجرد التحية التقليدية ، فقد تكون تحية بلا ود حقيقى ، بلا روح أخوى ، فلا تجدى فتيلا ، السلام الذى يهدى اليه الاسلام هو ما تشير اليه الآية الكريمة (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) (٣) سبل السلام هذه هى سبل السعادة ، سعادة الفرد والمجتمع ، لأنها سبل السلام مع الحياة ومع خالق الحياة ، مع من خلق من الاحياء ، وما خلق من الاشياء ٠ والصراط المستقيم الذى يهدينا اليه هو المنهج الاسلامى القائم على الايمان والعمل الصالح والخلق الكريم ٠ وكيف يكون مؤمنا من لا يحب

---

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد العزيز السيد ٠

(٣) الايتان رقم ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة

لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وأخوك الذى ينبغى ان تحب له ما تحب لنفسك هو أخوك فى الدين ، فى الانسانية ، فى بناء الحياة ٠ وكيف يكون مؤمنا من يفسد علاقته بجاره (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، الذى لا يأمن جاره بوائقه) وهل يكون مثل هذا الجار قد اهتدى الى سبل السلام ؟ وهل يكون قد أفشى السلام وهو يفزع جاره ، ويحرمه الأمن والعش الهادىء المستقر ؟٠

ان الايمان الحقيقى هو الذى يؤلف بين القلوب ، فقد تفشل كل الوسائل فى بلوغ هذا الامل (**لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم**) (٤) انه سبحانه ألف بينهم بالإيمان ، وقد كانوا فى الجاهلية أبشع ضحايا الفرقة والنزاع والصراع والشقاء ، لقد أشعلوا حياتهم بنيران الحقد والحسد والضغينة والانانية والكبرياء ، وكان كل منهم يهدم ما بناه أخوه بدلا من أن يساعده أو يكمل البناء ، ثم هداهم الله بالاسلام ، هداهم سبل السلام وأخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه ، وهداهم الى الصراط المستقيم ٠

ولكن كيف كان المنهج ؟ كانت تثور بينهم الخلافات فيناديهم القرآن الكريم ، ماذا يفعل بعضكم ببعض : لقد نسيتم أخطر شىء فى حياتكم نسيتم الايمان (**فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين**) (٥) ويناديهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ اصلاح ذات البين) وكان الافراد يختلفون

---

(٤) الآية رقم ٦٣ من سورة الأنفال

(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال ٠

فيمـا بينهم وينأى كل منهم عن صاحبه فاذا حديث رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم يدلهم على طريق الحب (ان المسلم اذا لقى أخاه فاخذ بيده تحاتت عنهمـا ذنوبهمـا كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف ، وغفر لهم ولو كانت ذنوبهم مثـل زبـد البحـر) واتصورهم وقـد هـرع بعضـهم الى بعض يتعانقون ! •

هل تعرف اول ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد بناء المسجد ؟ آخى بين المسلمين من أهل المدينـة ، وكانت بين الأوس والخزرج حروب وحزازات وثأر ، ولكنه صلى الله عليه وسلم آخى بين الأوس والخزرج وسماهم باسم واحد (الانصار) ثـم آخى بين هؤلاء الانصار أهل المدينة وبين المهاجرين الذين تـركوا الأهل والولد والمال والبلد ، واثروا أن يعيشوا سـعداء ، سعداء فى دار الهجرة مـع رسـول الله ، على ان يعيشـوا حياة الذل والاضطهاد فى مكة ، وأصبح لكل انصارى أخ من المهاجرين ، يحبه حب الأخ ويعامله معامـلة الأخ ، ويقاسـمه ماله وداره وكل مـا يمتلك ، ويريد أن يورثه لولا ان منعتهم آيات الميراث من ذلك ، وكان المهاجرون يعرفون من أدب الاسلام (ان اشكر الناس لله اشكرهم للنـاس) فكانوا يبادلون الانصار حبـا بحب ، حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشـد بعضه بعضا ، وكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يحثهم على التواد ، وينهاهم عن أن يهجر أحدهم أخاه فوق ثلاثـة أيـام •

قد تقول ان طبيعة الحياة حين ذاك لم تكن معقدة كحياتنا ، كيف استطيع ان أرى اصدقائى كل ثلاثة أيام فى هذا العصر المليىء بالمشكلات ؟ واقول لك أولا ان معنى هـذا الحديث الا تهجر أخاك عن خصومة أكثر من ثلاثة أيام ، وليس معناه أن ترى كل أصدقائك خلال ثلاثة أيام ، وثانيا اننا نحن الذين جعلنا حياتنـا العصرية

معقــدة ، وكان ينبغى للمخترعات الحديثة أن تكون عونا لتيسير الحياة لا لتعقيــد الحياة ، فالهاتف اداة اتصال جيدة تبعث الحياة فى العلاقات الودية ، أن كانت فى الهاتف نفسه حياة ! ، والخلق الكريم هو الكفيل بتقوية الروابط وحسن العلاقات ، وهل تظــن أن ما يحدث للهاتف من توقف عن أداء وظيفته ، بعيــد عن موضوع الأخلاق ؟ وهل تظن أن ما يتعللون بــه من نقص فى الامكانــات لا يشــمل النقص فى الامكانات البشرية الخلقيــة ؟ مخطىء من ظن يومــا ان الجهد البشــرى والصدق الايمــانى لا يعوض كثيرا من الامكانات الماديــة ٠

ولكننا أيضــا لا نكون منصفين ولا كراما اذا ركزنا الاتهام فى جهة من الجهات ، انها مؤسســة كغيرها من المؤسسات ، ان الخطأ ليس فى أشخاص هيئة المواصلات ، انــه فى الافكار الشقية التى تسيرنا والمفاهيم الغريبة التى تحاصرنا ، ان سعداء العــالم وعظماء التاريخ لم يصلوا الى هذه الدرجة من السعادة الا بمقدرتهم الفذة على حب النــاس ، وحب الخير للناس ، ولذلك أحاطهم الناس بالحب ، واستطاعوا ان يجمعوا القلوب حولهم بهذه الامكانات البشرية والخلقية بجانب ما لديهم من أمكانات مادية ٠

ليس من الضرورى أن تكون أكثر الناس مالا وبــذلا لتحظى بحب الناس (انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق) وكم من السفهاء المبذرين ينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حســرة ، لا يحمدهم الناس بل يسخرون من سفاهتم وتبذيرهم ، رغم استغلالهم لأموالهم ٠

وعلى الجانب الآخر من ينفق من حسن خلقه وسعة صدره وصفاء نفســه وصدق ايمانه ، فيحبه الله ويحبه الناس ، وانت تعرف ان أفضل المؤمنين أحسنهم خلقــا ، لا أكثرهم مــالا ، كما عرفت فى

سعادة الاسـرة ان مال المرأة قـد يطغيها وأن جمالها قد يرديها وانه لا يعصمها من الطغيان والتردى الا ايمانها ، وكذلك الرجل ٠

نعم ان المادة وغيرها من الامكانات قد تكون عونـا فى تأليف القلوب ، ومعروف ان حديثا من الأحاديث التى وردت عن افشـاء السلام يتضمن أربعة أمور منهـا أطعام الطعام (أفشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنـة بسلام) ولكننـا مع ذلك نؤكد ان اطعام الطعام ان لم يكن عن سخاء نفس فلن يكون لـه أى أثر ايجابى ، لا بـد أن يشـعر من تدعوه الى طعامك بما وراء الدعوة من حب ، فاذا أحس انهـا دعوة كريمة من انسان كريم أسـرع الى التلبية منشـرح الصدر دون النظر الى ما تضمه المائدة من الطعـام الشهى ٠ ان المـودة والاستقبال البشوش يجعلانه شهيا ، ولذلك يقول صلى الله عليـه وسلم (اذا دعيتم الى كراع فاجيبوا) ان الأهمية الأولى هنا لما وراء الاشتراك فى طعـام واحـد من علاقات المودة ومـن تآلف القلوب ، ولذلك يصبح الطعام أشهى طعام وأزكى طعـام (أحب الطعام الى الله ما كثرت عليه الأيدى) ، ان اهتمام الاسلام باطعام الطعام ليس من أجل الفقراء والمساكين فحسب ، ولكن من أجـل المودة والمحبة وتآلف القلوب كذلك ، ولذا نجد لحوم الاضاحى تنقسم أقساما ثلاثة ، ثلث يعطى للفقراء ، وثلث يهدى للاصدقاء ، وثلث تأكله الأسـرة ، وأعتقد ان ذلك الحكم ليس وقفا على ذبائح يـوم النحر (اذبحوا لله فى أى شهر كان ، وبروا لله وأطعموا) كمـا انـه ليس هناك ما يمنع من التصـريح بهذا المبدأ ، ومخالفة كثير من المفسـرين فى ربط سورة الكوثر بيوم النحر ، وموافقة الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره القرآنى للقرآن بان الصلاة هنـا مطلـة غيـر مقيدة بصلاة العيد ، وكذلك النحر ليس مقيـدا بأضحية يـوم العيد ، لأن ذلك لا يتناسب أبـدا مع العطاء العظيم الذى

رتبت السورة الأمرين عليه (ان أعطيناك الكوثر) فالكوثر هو الخير الكثير الذى يتمثل فى النبوة والاسلام ، والنهر المسمى بذلك الاسم فى الجنة ، ولا يمكن ان يكون ما يترتب على هذه النعمة العظيمة هو ركعتان اثنتان فى يوم العيد ، وهو لا يأتى الا كل عام مرة ، ولا ذبح أضحية يوم النحر ، وانما الأقرب الى عقولنا ان يكون المعنى فصل لربك دائما ، وانحر ما أستطعت أن تنحر من الذبائح لتطعم الطعام فى أى وقت ٠

وقد بدأت أخشى كثرة الحديث عن اطعام الطعام حتى لا يتصور أحد أن هذا الاطعام هو أهم وسائل العلاقات الطيبة وحسن المودة وتأليف القلوب ، كيف وكلنا يعرف ان حرارة اللقاء أكبر أثرا فى النفوس الكريمة من تقديم الغذاء ، ولعلك تذكر أن أول فصل فى هذا الكتاب كان عن تكريم الله للانسان ٠٠٠ فالشعور بالكرامة الانسانية مقدم على أى نفع مادى يشوبه الهوان ، ولذلك كان قائد ركب الايمان فى هذه الدنيا يحذرك من تضييع حق زائرك فى التكريم ، اتكالا على رتبتك أو على محبته لك أو على ما تقدمه له من قرى ، ان الكلمة الطيبة ، والابتسامة المشرقة والوجه الطليق والمعاملة الانسانية أعمق أثرا فى تأليف القلوب وكسب المودة ، فاذا كنت تحب الناس من قلبك حقا فتأكد أن ذلك سوف يظهر فى كل ما تقول وتفعل ، ومن الخير أن تظهر ذلك ولا تكتمه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لصحابته (اذا أحب أحدكم أخاه فليبلغه ان يحبه) ومن الخير ان تنتفع بما يوصيك به عليه الصلاة والسلام ٠

فقد استطاع ان يجعل مئات الملايين تحبه ، عبر الاجيال كلها تحبه ، لقد كان أستاذ الدنيا فى الذوق الرفيع والخلق الكريم ٠ واستمع الى هذه اللمحات من دقة ملاحظته ورعايته

لمشاعر الناس (اذ سل أحدكم سيفه لينظر اليه فاراد ان يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله اياه) وقد تقول انــه يحذر الناس من خطورة حــد السيف ، ولا دخل لذلك برعاية المشــاعر ، فماذا تقول فى قولــه صلى الله عليه وسلم (اذا عطس أحدكم فليضــع كفه على وجهــه ، ليخفض صوته) ؟ ان الرذاذ الذى يتطاير سوف يتأذى منــه الناس بلا شــك ، فلماذا تجعلهم يتأذون منك ، ويحسون انــك لا تعبأ بهم ؟ ان الــذى يقول لبعض صحابته انــكم قادمون على اخوانكم فاصلحوا رحالكم ، وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى الناس ، فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش) هو قائد الانسانية الى سموها ورقيهــا ، ان الله لا يحب الفحش ولا يحب التفحش ، والتفحش هو تعمــد ابقاء الثياب والرحال على قذراتها وعدم الاهتمام بتغييرها عند لقــاء الناس ، فان التفحش فى الملابس ينم عن عدم احترامك للناس ، كما أن التفحش بالنسبة للفــراش والأثاث ، وهما عند المقيمين يقابلان الرحال عند الظاعنين ، يؤكد عدم تقديرك للنظافــة فى ذاتهــا ، وأنت تعلم ان رســول الله رأى شخصا يدخل على مجلسه رث الملابس ثائر الشعر فقال : أما يجد هــذا ما يسكن بــه رأسه ؟ أما يجــد ما يغسل بــه ثيابه ؟ وممــا لا شــك فيــه ان الاسلام يوجهك الى نظافة الظــاهر والباطن معا ، ولا يكتفى عند الصلاة مثلا بانك طاهر القلب والنيــة ، وانما يطالبك بطهارة الثوب والبدن والمكان أيضا ... انهــا الطهارة الشــاملة للظاهر والباطن معــا .

ان القلب الطاهر يحب الطهــارة ويتعودها ، ويشــمئز من القذارة وينفر منهــا ، فاذا كنا قــد تحدثنا عن الطهارة الظاهرية فى الثوب والرحال والفرش والأثاث ، فلننظر الى لون من طهــارة الباطن فى حادث وقع لابى بكر الصديق رضى الله عنه مــع واحد

من الصحابة عليهم الرضوان (٦) لقد انفعل أبو بكر ، وكانت فيه حدة ، فقال للصحابى كلمة جارحة ، ثم عاد الى هدوئه فندم ، وأخذ يرجو الصحابى أن يقول له مثلها ليقتص منه ، ولكن الصحابى رفض ، فقال له أبو بكر : لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ويذهب أبو بكر ... ، ويجتمع رجال من أسلم ـ قبيلة الرجل ـ فيقولون له : رحم الله أبا بكر ، فى أى شىء يستعدى عليك وهو الذى قال لك ما قال ؟ فقال الرجل لابناء قبيلته : أتدرون من أبو بكر الصديق ؟ هذا ثانى اثنين ، وذو شيبه فى الاسلام ، يلتفت فيراكم تنصروننى عليه فيغضب ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، ويغضب الله لغضبهما ، فأهلك وأشقى ، اليكم عنى (٧) .

ثم تتبع أبا بكر فوجده قد ذهب فعلا الى رسول الله وأخذ يحكى له ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره فرأى ربيعة يقف غير بعيد ، فناداه وسأله : ياربيعة ، مالك والصديق ؟ فقال ربيعة يا رسول الله كان كذا وكذا ، فقال لى كلمة كرهتها ، فقال لى قل كما قلت حتى تكون قصاصا ، فأبيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ، لا ترد عليه ، ولكن قل غفر الله لك يا أبا بكر .

فاذا كان لنا أن نتساءل : لماذا كان كل هذا الاهتمام من أبى بكر بان يقتص منه ربيعة ؟ فان الجواب يأتى سريعا ، وهو ان أبا بكر كان يقظ الضمير ، نظيف الظاهر والباطن ، يسوءه ان

---

(٦) هو ربيعة الأسلمى .

(٧) اى ابتعدوا عنى

يخطىء فى حق الناس ، أكثر مما يسوءه أن يخطىء الناس فى حقه . انــه لا يستطيع ان ينام قريــر العين وقد آذى مشاعر انسان ٠

وكان أبو بكر بعــد ذلك يحاول دائما ان يتجنب الوقوع فيمــا يضطره الى الاعتذار ، أو يلجئه الى أن يقف موقفا كهذا الموقف ، موقف التوسل الى انسان ليقتص منــه ٠

انــك قد تجد من الدبلوماسيين فى هــذا العصــر من يجيــد فن العلاقات ، ويكسب الاصدقاء ، ويبتعد عما يؤذى مشاعر الناس ، قــد يفعل ذلك بمقتضى وظيفته لأن طبيعة عمله تدعوه الى ذلك ، ولكننا نريــد لك ان تفعل هــذا وافضل منــه انطلاقا من ايمانك ، وبدافع من احساسك بالناس ، ومراعاتك لمشاعرهم ، وحبك الصادق لأن تكون عامل سعادة لا عنصــر ايذاء ٠ ويمكنك أن تفكر فيما وراء هــذا الحديث الشــريف من عاطفة نبيلة وشعور انسانى (اذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، حتى تختلطوا بالناس ، فان ذلك يحزنــه) ٠

ان الاستهانة بمشــاعر الناس كبر يترفع العقلاء عنه ، وهو داء وبيل يحطم علاقات المودة ويقطع الاواصــر بين الناس ، أمــا التواضع ، وتقدير انسانية الناس فهو عبادة من أعظم العبادات(٨) كما أنه وسيلة من أنجح الوسائل لكسب ود الافاضل من الناس ٠ أما لئامهم ، أمــا الذين يستغلون تواضع الكرماء ، ويحصلون على بعض المنافع المادية بسيف الحياء ، فانهم يقلون كثيرا فى المجتمعات السعيدة ، ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاسعد

---

(٨) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنكم لتغفلون عن أعظم العبادات ٠٠٠ التواضع) ٠

مجتمع عرفه التاريخ (ان الله أوحى الى ان تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد) ان الفخور الباغى اذا أحس ان المجتمع لا يرضى عن سلوكه ولا يشجعه ، فقد يخفف من غلوائه ، ويعرف أن شر الناس من تركه الناس لشره ، وبذلك ينجح المجتمع فى حصار هذا الداء الوبيل ٠

ان المجتمع الذى ثبت نجاحه فى مقاومة هذه الآفات المدمرة لهو المجتمع الذى ينبغى الاقتداء به ، انه المثل الأعلى للمجتمع السعيد ، ان واضع أساسه فى المدينة المنورة يقول (الا أخبركم بمن تحرم عليه النار ؟ على كل هين سهل لين قريب) ٠ وأنت تعرف انه ظل يذكر خديجة بالخير ، ويبر أهل ودها بعد موتها ، الى أن لحق بربه ، وهو الذى ينبه أصحابه الى مواقع البر وموجبات المودة فيقول (ان أبر البر ان يصل الرجل أهل ود أبيه بعد موته) ولو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم قمة عالية فى الخلق العظيم لما اجتمع عليه كل هؤلاء المحبين ، لقد كانوا يحبونه حبا لم نر مثله فى التاريخ ، يفدونه بأموالهم وأنفسهم ، ويخاطبونه بقولهم (بأبى أنت وأمى يا رسول الله !) ونحن بعد هذه القرون الطويلة لماذا نحبه كل هذا الحب ؟ لانه وجهنا الى كل خير وحذرنا من كل شر ، ولاننا نحس انه يحبنا حبا لا يتسع له الا قلبه صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ استمع الى حنينه لرؤيتنا (وددت انى رأيت أخوانى ، الذين آمنوا بى ولم يرونى).

ولقد نبهنا رب العزة الى سر من أعظم أسرار هذا الحب ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك (٩) ٠

---

(٩) الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران

بالمرفق ، وهو صفة من صفات الانبياء والصالحين والسعداء ، بالرفق الذى يقول عنه صلى الله عليه وسلم (اذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق) بالحكمة والموعظة الحسنة ، بالامر بالمعروف حبا للناس ورغبة فى سعادتهم ، والنهى عن المنكر خوفا عليهم وشفقة بهم ، بالتغاضى عن بعض الهنات الهينات ايمانا بأن الانسان بشر ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه • بالرحمة بالضعفاء وكان الناس من قبل يحتقرونهم ويسخرون منهم ، بما علمنا من رعاية للانسان فى حالات ضعفه ، من تشميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الميت •••• (١٠) •

باقامة العدل ومحو الحواجز بين الطبقات والاجناس (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) • مقياس للتفاضل جديد وهو المقياس الصحيح الوحيد • دعوة الى الاخوة والمحبة والسلام ، (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) • والسلم هنا ليس السلام كما تعارف عليه الناس من قبل ، ولا هو السلام كما يتعارف عليه الناس الآن • انه سلام مع النفس ومع البيت ومع المجتمع • انه السلام مع الكون كله ؛ انه سلام مع الله يثمر كل هذه الثمار الطيبة اليانعة •

هل تعرف أعز من القرآن ؟ هل تعرف أحب الى رسول الله والينا من القرآن ؟ ومع ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه ••• فقوموا !) •

---

(١٠) كنت اقرأ فى صباى عن عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الامور ، ولا افهم سبب هذه العناية ، حتى عرفت أخيرا أثرها فى توطيد العلاقات ، وشعور الانسان أنك معنى بـه •

هل تعرف لماذا يشتد تحذيره صلى الله عليه وسلم من الفرقة والخلاف ؟ لأن من كانوا قبلنا تفرقوا واختلفو فغضب الله عليهم ولعنهم (**وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** (١١) ٠ وها نحن أولاء قد تفرقنا واختلفنا فتداعت علينا الامم كما يتداعى الاكلة على القصعة ، وان ذلك ليس عن قلة نعانى منها ، اننا كثير ، ولكننا كما قال عليه الصلاة والسلام (**غثاء كغثاء السيل**) ٠

ان الدعوة الى الدخول فى السلم كافة تتضمن الدعوة الى اعداد القوة التى تحمى السلام ، القوة التى ترهب عدو الله وعدو الحق ، فمن الناس والامم من لا يكف عن العدوان الا اذا رهب ، وأقوى سلاح نرهب بـه عدو الله هو سلاح الوحدة ، وحينئذ يخشانا المعتدون ، وندخل فى السلم كافة ، ونستطيع تاليف القلوب من موقف الاقوياء ، لا من موقف الضعفاء ، سلام السعداء لا سلام الاشقياء ٠

أخى المسلم : هل تعلم ان تاليف القلوب لـه فى مصارف الزكاة سهم رسمى ؟ سهم من ثمانية أسهم لتاليف القلوب ٠٠٠ وأن اسلافنا يقسمون الكفار الى أصناف ، منهم صنف يأتى بالاحسان ، وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم مئات الابل لقوم دخلوا حديثا فى الاسلام ، منهم ابو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وقال (فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتالفهم) وفى القرآن الكريم (**انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل**) (١٢) وهل تعرف أنهم يقولون انأمير المؤمنين عمر بن الخطابألغىهذا السهم ، وكان رأيه ان الاسلام لم يعد فىحاجةالى

---

(١١) الآية رقم ١٤ من سورة الشورى ٠

(١٢) الآية رقم ٦٠ من سورة التوة ٠

تأليف القلوب،فقد رأى ان الاسلام أصبح من القوة بحيث يمكن الغاء هذا السهم ، وهل تعرف أن العلماء قد اختلفوا بعد ذلك فى الغائه أو ابقائه ؟ أما أنا فأرى ان ما فعله عمر لم يكن الغاء لهذا السهم ،انه يمكن أن يوقف العمل بحكم من الاحكام ، لظرف من الظروف . أما ان يجتهد فيلغى حكما مع وجود نص قرآنى وسنة عملية ، فاننا جميعا نعرف ان ذلك لا يفعله عمر رضى الله عنه وأرضاه ٠

مما لا شك فيه ان الأدب الاسلامى يدعونا الى ان نحترم رأى عمر غاية الاحترام ، بل ان حبنا له ولمكانه من الأمة الاسلامية لا يسمح لنا بمناقشته ، ولكن الحرية التى يكفلها لنا الاسلام ، والاقتداء بعمر نفسه فى ذلك ، يجعلنا نسأل ونراجع ، فقد كان عمر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه ، فاذا عرف ان ما يقوله رسول الله وحى من السماء ٠٠٠ خشع قلبه ، وخشعت جوارحه ، أما اذا عرف انه رأى شخصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك لم يكن ليمنعه من السؤال والمراجعة ٠

اننا متأكدون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لن يغضب حينما نراجعه فى اجتهاد منسوب اليه ، لانه اجتهد مرة على المنبر ونهى عن المبالغة فى المهور فراجعته امرأة من عامة المسلمين ، وقالت له : كيف تقول ذلك والله يقول (**وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ؟**) (١٣) فلم يغضب أمير المؤمنين ، ولم يقل لها ان صوتك عورة ، ولم يتحين فرصة لينتقم فيها لنفسه ، لقد كان أكبر من ذلك وأتقى ٠٠٠ فقال قولته التى سجلها له التاريخ (أصابت امرأة وأخطأ عمر) ٠

ونحن بدورنا نسأل : هل من حق أحد أن يجتهد مع وجود

---

(١٣) الآية رقم ٢٠ من سورة النساء ٠

النص القرآنى ووجود السنة العملية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم نسأل وقد عاد المسلمون الى حالة من الضعف لا تخفى على أحد ، هل يمكن أعادة العمل بهذا النص ، والانتفاع بهذا السهم فى تأليف القلوب ، وأعتبار ما فعله عمر ايقافا لهذا الحكم فى ظروف معينة وليس ألغاء له ؟ ومعروف أن عمر نفسه قد أوقف العمل بحد السرقة فى عام الرمادة ، ولم يكن هذا الغاء للحد ، لسبب بسيط جدا ، وهو أن عمر كان أحرص على دينه من أن يلغى حدا من حدود الله ، بل اننا نستطيع ان نقول بكل حرية انه لا يملك ذلك ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه يملك ذلك ٠

هذه قضية نعرضها ولا نريد ان نطيل فيها ، ولكننا نريد ان نقول أن الاسلام لم ينظر لغير المسلمين نظرة العداء والخصومة بل انه يفتح الباب امامهم للدخول فيه ، ويرجو لهم الخير (الاسلام) ويعرضه عليهم ، ويستقبلهم بكل الفرحة والترحيب ان أرادوا أعتناقه ، وان لم يريدوا ذلك فانه يترك لهم الحرية المطلقة بعد أن يبين لهم الرشد من الغى **(لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)** (١٤) وكما يترك لهم حرية الاختيار يترك لك حرية الاتصال بهم وانشاء علاقات طيبة معهم اذا لم يكونوا من المحاربين للاسلام ، بل انه يشجعك على تأليف القلوب ، ويجعل لذلك سهما فى مصارف الزكاة ٠

من أجل ذلك كانت دعوتى للجميع ٠ لا لكل مسلم بالفعل فحسب ، ولكن لكل مسلم بالفعل أو بالاستعداد ، ولكل مسلمة بالفعل أو بالاستعداد ، ولو كان الاسلام ينهى عن ذلك ما فعلته **(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من**

---

(١٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة ٠

دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين) (١٥) ٠

هل هناك دعوة الى البر بهم أصدق من هــذه الدعوة ؟ هل هنــاك جزاء على هذا البــر أعظم من أن ـ يحبك الله ويكتبك عنده من المقسطين ؟ هل هنــاك تسامح أكثر مما تدعونا اليــه هذه الآية الكريمــة (**وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللــه ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (١٦) ٠**

ان حسن معاملة المسلمين لغيرهم هى أعظم دعوة للاسلام ، انهــا عرض عملى لسماحة الاسلام ، لعالمية الاسلام وانسانيته ، لم يكن برتراند راســل اذن هو أول داع الى الاســرة العالميــة ، وانما نشــأت هذه الدعوة أساسا من دينك ، من قرآنك ، من نبيك ، بــل ان علاقات الانسان كلها ٠٠٠ علاقاته بربه وبنفسه وبالناس جميعــا ٠٠٠ ليكون صادق الايمان بربه الكريم ، دائم التطهيــر لقلبه المؤمن ، خالص الود لأســرته الانسانية ، كل ذلك تجده فى هذا المنهج النبوى للعلاقات الثلاث ، نجده نورا يتلألأ ، وايمانــا يتوضأ ، وخلقا جميلا ينشــر العطر فى النفوس ٠

اتق الله حيثما كنت

واتبع السيئة الحسنة تمحها

وخالق الناس بخلق حســـن ٠

---

(١٥) الآية رقم ٨ من سورة الحشــر ٠

(١٦) الآية رقم ٦ من سورة التوبة ٠

الفصـــل الســـابع

ســـد الـذرائـــع

وكما ختمنا الباب الأول بفصل عن التوازن يعصـــم فصوله من الجموح ، نختم هـذا الفصل ان شاء الله بفصـل يؤمن مسيرتة من مخاوف الطريق ، فقـد علمنا المنهج الاسلامى للفوز العظيم . ونحن نحث الخطا فى طريق السعادة أن نسد منافذ الشقاء والعناء ، علم جنـد الحق ان يسدوا على الباطل كل طريق ، وان يكونوا لـه بالمرصاد ، حتى لا يكدر صفوهم ، ولا يخترق صفوفهم • علمنـا حين حرم علينـا الخبائث ، أن نقطع الجذور التى تغذى الخبائث ، علمنا ألا نحاول تطهير النهر عند مصبه ، وانما نتابع التطهير من المنبع للمصب ، فاذا حرم الله أمرا تجنبنا كل ما يؤدى اليه •

وقد يبدو لبعض الباحثين ان سد الذرائع أمر شديد الصعوبة ، لكثرة المخاطر التى تهدد المسيرة ، وكثرة الأفاعى التى تطل من الجحور ، ولكننـا عرفنا منذ البداية أن الدين يســر ، وان سلوك الطريق المستقيم أسهل كثيرا من سلوك الطرق الملتوية ، لأنـه يتفق مـــع الفطر السليمة ، فليس عسيرا على من ربى ضميره على اليقظة الدائمة ، ان يحرسه ضميره بعد ذلك ، انه لن يحتاج الى كثيــر من المبيدات لحفظ بستانه من الآفات•• ومن شب على النفور من الحرام لن يجد صعوبة فى غض البصــر ، ومن تعود احترام والديه لن يجد صعوبة فى احترام كل ذى شيبة فى الاسلام •

واذا قرأت سورة الحجرات فسوف تجد كثيرا من الآداب التى تعصم الانسان من الزلل ، وتمنع احباط العمل ، وتصون المجتمع

من الشقاء • فهى تبدأ بالنهى عن تقديم الرأى والفكر البشـرى على حكم الشـرع والأمـر الالهى (**يايها الذين آمنو لا تقدموا بين يدى الله ورسـوله**) (١) •

ثم تحذر المؤمنين ان تخلو قلوبهم من مشاعر التوفير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتؤكد أن ذلك يفسد الأعمال•• ان تجرد المسلم من شعور الحب والولاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعبيره عن هـذا التجرد برفع الصوت فى حضرته ، يفسـد على المسلم كثيـرا من مقومات الايمان الصادق ، وقـد يحبط عمله دون أن يشـعر • (**يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا لـه بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمـالكم وأنتم لا تشـعرون**) (٢) •

ويأتى بعـد ذلك تحذير من الانبـاء الكاذبة التى تثير الفتنة ، وتنشـر البلبلة (**يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، ان تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**) (٣) . لا بـد من دراسة لهذه الأنباء لمعرفة مدى صحتها ، فالتحذير هنا من ترديد الشائعات الكاذبـة ، ومن التأثر بهـا ، ومن التصرف بجهالة ••• وواضح ان ازالة الجهالة فى هذه الحالة انما يكون بالتربث لمعرفة الحقيقة •

ثم يأتى بعد هذا التحذير تنبيه الى ثغرة خطيرة ، كفيلة بأن تكدر صـفو المجتمع كله • وهى أن تشتبك طائفتان من المؤمنين فى قتال بينهما ، ثم يترك المسلمون هـذا القتال يستمر ، وهذا الداء

---

(١) الآية رقم ١ من سورة الحجرات •
(٢) الآية رقم ٢ من سورة الحجرات •
(٣) الآية رقم من سورة الحجرات •

يستشـرى (**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهمـا .** فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى **أمـر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين • انما المؤمنون أخوة ، فاصلحو بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون**) (٤) •

واذا كان المؤمنون أخوة فانـه ينبغى حماية هـذه الاخوة صافية من كل ما يشوبها ، بعيدة عن كل عوامل الفساد والدمار •

ومن أبشع المعاول التى تمزق أواصر المودة والمحبة والاخاء ، ان يسخر بعض الناس من بعض ، وكيف يسخر المسلم من أخيـه المسـلم ؟ وقد يكون أخوه خيرا منـه ! انه لا يعرف كل شيء عنه ، انه أن رأى فيه جانبا لا يعجبه فقد تكون فيه جوانب خير لا يعرفها ، قد يكون اقرب الى الله منه •

ومن المعاول التى تهدم بنيان المجتمع أن يتبادل الناس فيـه التنابز بالألقاب ، وان يذكر كل منهم معايب غيره وينسى عيوب نفسه (طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس) وماذا يعيب المسلم من أخيه ؟ عيوبا فى خلقته ؟ لون بشرية ؟ قصر قامته ؟ وكيف يعيب ذلك وهو يعرف ان الخالق هو الله ، فمن يعيب اذن ؟!

هل يعيب فيه حسبه ونسبه وفقره ومسـتواه الاجتماعى ؟ هل يستطيع انسان ان يتحكم فى مولده من أسـرة فقيرة أو غنية ؟ ريفية أو مدنية ؟ استغفر الله ! ، ان هذا فسوق بعد ايمان (**يأيهـا الذين آمنـو لا يسـخر قوم من قوم عسى أن يكونـوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهم ، ولا تلمزوا أنفسكم ،**

---

(٤) الآيتان رقم ٩ ، ١٠ من سورة الحجرات •

ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (٥) ٠

هـل سمعت تحذيـرا كهذا التحذير ؟ أو رأيت نذيرا كهـذا النذير ؟! هل تعرف أن ذلك فسوق بعد ايمان ؟! (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ٠

ومن الآفات التى تهاجم المجتمعات فتغتال سعادتها وأمنها ، أن ينتشـر سوء الظن بين أفرادهـا ، وان يتجسس بعضهم على بعض ، ولذلك يقوم صلى الله عليه وسلم (اياكم والظن ، فانه أكذب الحديث : ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانـا) ويقول الحق جل جلالـه **(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ٠٠٠)** (٦) ٠

أما الغيبة فقـد صورها القرآن الكريم أبشع تصوير ، حين صور المغتاب بانه يأكل لحم أخيـه ميتا ، وفى الحق انـه ينهش عرضـة ، يأكل لحمه ، يشوه صورته ، يطعنه من الخلف ، ينتهز فرصة غيابه حتى لا يدفع عن نفسه ، كالميت الذى لا يستطيع ان يـرد على من يغتابه ٠٠٠ انه ينهـال عليه بالمعاول وهو غـائب كالميت ، **(ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتـا فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان اللـه تواب رحيم)** (٦) كل هـذه جرائم لا تغسلها الا التوبـة الخالصة النصوح ، ولذلك نجد الآيـة السابقة تختم بقوله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ونجد هذه الآية تختم بقوله سبحانه (ان الله تواب رحيم) ٠

---

(٥) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات ٠

(٦) الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات ٠

ثم تحذرنا السورة من التمييز العنصرى ، وتؤكد ان الناس جميعا من أصل واحد ، وانما كان اختلاف السنتهم وألوانهم وقبائلهم وشعوبهم ، وتفاوت مواهبهم وتنوع تخصصاتهم ، ليتكاملوا ويتعارفوا ويتعاونوا ··· فاذا كان لابد من تفاضل بعضهم على بعض ، فليكن المقياس هو الاستقامة على دين الله ، وحسن الخلق ، والعمل الصالح · وجماع ذلك كله هو التقوى (**يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير** (٧) ·

واخيرا تحذرنا الآيات ان نغتر بديننا ، وننسى فضل الله الذى هدانا للايمان (**يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين**) (٨) ·

ولا أريد ان أطيل فى حديث هذه المآثم ، كما لا أريد ان اتبع طريق أبى طالب المكى وغيره ممن أحبوا تفريع الذنوب فأضافوا الى الموبقات السبع أضعافا مضاعفة ، ومعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حصر الكبائر فى سبعة ذنوب خطيرة ، فكرت أول ما قرأت عنها ان أربط بينها وبين أبواب جهنم السبعة ، وتصوت ان كل كبيرة من هذه الكبائر باب من أبواب جهنم · ولكنى فوجئت بعالم يسأله بعض تلاميذه ، أليست الكبائر سبعا ؟ فيقول : انها الى السبعين أقرب ! ، ولا شك أن هذا القول جعلنى أتردد فى نظرية الربط بين الكبائر وأبواب الجحيم ، أما أبو طالب المكى فقد جمع منها سبعة عشر ، ورتبها حسب الجوارح فقال :

---

(٧) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات ·

(٨) الآية رقم ١٧ من سورة الحجرات ·

أربعة في القلب : وهي الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والامن من مكر الله ، والاصرار على معصية الله ·

وأربعة في اللسان : هو شهادة الزور ، والسحر ، واليمين الغموس ، وقذف المحصنات المؤمنات ·

وثلاثة في البطن : هي أكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وشرب الخمر ·

واثنان في اليدين : هما القتل والسرقة ·

واثنان في العورة : هما الزنا ، واللواط ·

وواحدة في الجسد كله : وهي عقوق الوالدين ·

وواحدة في الرجلين : الفرار يوم الزحف ·

وفي الحق ان هذه الامور جميعا مما يفسد على المرء دينة ودنياه ، وعلى المجتمع أمنه وسعادته ، كما انها جميعا من أخطر المعاصي التي يدعو اليها الشيطان ليقوض بها حياة الانسان · ونحن نتفق مع أبي طالب المكي وغيره من الصالحين في انها ثغرات

خطيرة لابد من التنبيه اليها والتحذير منها ، ولذلك أوردناها ··· ولكننا مع ذلك نلتزم بالحديث الشريف الذي يحصر الكبائر في السبع الموبقات (٩) ونرجو ان يكون ربطها بأبواب جهنم توضيحا

---

(٩) قال صلى الله عليه وسلم : (اجتنبوا السبع الموبقات · الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، ورمي المحصنات المؤمنات) ·

لبشاعتها وتحذيرا جديدا من الاقتراب منها ٠

أما ان الاجماع منعقد على ان كل ما نهى عنه الله ورسوله فهو من الشرور التى تغتال أمن الانسان وسعادته وتدمر بنيان المجتمع وتعوق نهضته ، فذلك أمر لا ريب فيه ، ولا خلاف عليه ٠

ولو انك قرأت ما فاجأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من تعريف جديد للمفلس ، لعرفت العواقب الوخيمة لعدد من الشرور ، وان كان بعضها ليس من الكبائر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتدرون من المفلس ؟) قالوا يارسول الله ، المفلس فينا من لا ناقة له ولا متاع ، فقال صلى الله عليه وسلم (المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ٠٠٠ ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار) ٠

ويكفى أن تفتح جامعا من جوامع الاحاديث المرتبة ترتيبا ابجديا ، وتنظر فى كلمة (اياك) أو (اياكم) فماذا ترى ؟ هل ترى (**اياكم والحسد ، فان الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب**) (١٠) ٠ هل تقرأ (اياكم والشح ، فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) أم تقرأ (اياكم والغلو فى الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين) ؟ ماذا تريد بعد ذلك أن تعرف ؟

---

(١٠) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا)

هل تريد أن تعـرف كيف كان السلف الصالح ينهـون عن الشرور وينأون عنهـا ، وكيف كان صغارهم يشبون على النفور من المآثم والتحوط منها ؟ ان أردت ان تعرف شيئا من ذلك فانظر الى هذه الواقعة التى لا تضعها المدارس ضمن مناهجها التربوية :

بعد ان استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ذهبت اليـه امرأة أبى طلحة ومعهـا ابنها الصغير (انس) وقالت يا رسـول الله هديتى اليك خويدمك أنس ، يخدمك وجـه النهـار ويعود الى آخـره ليبيت عندى ، وفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهـا تريد لابنها ان ينشأ فى البيت النبوى ، فقبل الهدية ٠٠٠ وعاش أنس منـذ صباه الباكر يخدم رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ، وبعد فترة قصيرة ، كانت هذه القصة :

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنس فقيـل لـه انـه يلعب مع أترابه ، فنزل عليه الصلاة والسـلام ، الى حيـث وجده ، فسلم عليه وعلى اترابه ثم انتحى بـه ناحية ، وأرسـله فى أمر من أموره عليـه الصلاة والسلام ، وذهب أنس ٠٠ ثم عاد الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وانصـرف الى أمـه ليبيت عندها ، ولكنهـا سألته : لم تأخرت الليلة يا أنس ؟ فقال بعثنى رسول اللـه صلى الله عليه وسـلم فى حاجة ٠ قالت وما تـلك الحاجة ؟ فقال الغلام فى جد حازم : « انها سر ٠٠٠ ولا أبوح بسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحـد » وفرحت بـه أمه ، فرحت بان يكون ابنهـا الصغير موضع ثقة رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يأمنه على سـره ، ثم فرحت بأن يكون أهـلا لهذه الثقة فيستطيع كتمان السـر ، لقد شجعته أمه ، ولم تنهره كما تفعـل بعض الامهات ، ولم تقـل له : عنى أنا تكتم السـر ؟ انى أمك !٠

وكبر أنس ، وأصبح من أكثر الناس حديثـا عن رسول الله بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ٠٠ ، ومرت سنوات ٠٠ وحضرت أنسـا الوفاة ، وجاء ابن عمه ثابت ، وها نحن أولاء نسمع ثابتا يقول : حفظت كل ما رويته عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن مسألة واحـدة تشغلنى أريـد معرفتها ، ما هى تـلك الحاجة التى بعثك فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ان تأخرت عن بيت أمـك ؟ ونسـمع أنسـا يجيب وهو فى سكرات الموت ، والله يا ثابت ، انـك لأحب الناس الى وآثرهم عنـدى ، ولو كنت قائلا سـر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد ٠٠٠٠ لقلتـه لك ٠

ومات أنس ، ولم تعرف الدنيا ما هى هـذه الحاجة ، ويقول العلماء ، لابـد انهـا حاجة خاصة من حوائج بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانت مسألة عامـة يهم المسلمين معرفتهـا ما وسـع أنسا أن يكتمها ، وانت تعرف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربى صحابته على الفضائل ، ومنـه عرفوا ان الرجل الفاضل لا يذيع الاسـرار ، ولا يقول كل ما يعرف دون ان يميـز ما ينبغى ان يقول وما لا ينبغى ان يقول ، وكان عليه الصلاة والسـلام يوصيهم ويوصينا (اسـتعينوا على قضـاء حوائجكم بالكتمـان)

ولعلك تعرف طرفا من حياة الشـاعر الهجـاء الذى عرفه التاريخ باسم الحطيئة ، وكان بذىء اللسان ، يهجو أباه ويهجو أمـه ، ويهجو زوجه ويهجو نفسـه (١١) ، وتعرف ان من أقذع ما هجا به أمه قوله لهـا :

---

(١١) كان هجاؤه لنفسـه يوم خرج ليبحث عن ضحية يهجوهـا ، وكان لسان يـرد : =

أغربالا اذا استودعت سـرا   وكانونا على المتحدثينـا

ولا نعجب كثيرا لما يقول هذا الحطيئة لامـه ، فانه لا يـزال متاثرا بالجاهلية ، وقد حبسه عمر بن الخطاب لهجائه المقذع الذى يتأذى منـه الناس ، فارسل من حبسه الى عمر يستعطفه :

ماذا تقول لافراخ بـذى سلم   زغب الحواصل لا ماء ولا شجر؟

ألقبت كاسبهم فى قعر مظلمـة   فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وأنت تعرف ان عمر كان يخلص النصح لامتـه ، ويبـذل كل جهده لحماية رعيته ، وكان لابد أن يحميهم من لسـان الحطيئة واضـراب الحطيئة ، انه من غير شـك يحفظ قول رسول اللـه صلى الله عليه وسلم (أيما وال ولى من أمـر أمتى شـيئا ، فلم ينصح لهم ويجتهـد لهم كنصيحته وجهده لنفسـه كبـه الله تعالى على وجهه يـوم القيامة فى النار) لقـد كان عليه الصلاة والسلام كما ترى مبشـرا ونذيرا ، لم يكن مبشـرا فحسب . وهذا هـو ردنـا على من يتصور أن كتابا عن السعادة لا ينبغى أن يضم فصلا كهـذا الفصل ، كله تحذير ونذير ، اننا نرى أن حديثا عن السعادة لا يكون وافيا ان لم يحذر من أحابيل الشيطان ، من أبواب الشقاء ... انهـا ان فتح منهـا باب تصاعدت منـه نيران حارقة ، أو على الاقل أدخنة خانقة ، وأبخرة تكتم الانفاس ، وتنغص الحياة ، وتقضى على السعادة والسعداء .

= ابت شفتاى اليـوم الا تكلمـا   بسوء فما أدرى لمن انا قائله

ولم يجد أحدا يصب عليه ما امتلأت بـه نفسه من رغبة فى الهجاء ، ولكنه وجد غديرا من الماء ، فذهب اليه ، واطل عليه ، ورأى وجهه فقـال :

ابت شفتاى اليـوم الا تكلمـا   بسوء فما أدرى لمن إنا قائله

أرى لى وجها قبح الله شكله   فقبـح من وجـه وقبح حامله

أخى المسلم : انك باسلامك ميسر للوصول الى رضوا الله ، والحصول على سعادة الدنيا والآخرة ، ميسر لاجتناب غضب الله ، والبعد عن الشقاء فى الدنيا **والآخرة** ٠

هل تعلم ان من لم يسأل الله يغضب عليه ؟ هل تعلم ان أعجز الناس من عجز عن الدعاء

اللهم اغننا بحلالك عن حرامك ، وبفضلك عمن سواك **(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (١٢) ٠**

وبمناسبة هذا الدعاء القرآنى ، أظنه يسعدك أن تعرف ما استنبطه أحد العلماء من دعاء فى أواخر آل عمران ، فقد قرأ فى هذا الدعاء اتجاه المؤمنين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والارض

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار ٠

ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ٠

ربنا : اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ٠

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الابرار ٠

ربنا ، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ٠

---

(١٢) الآية رقم ٢٠١ من سورة البقرة ٠

فاستجاب لهم ربهم ٠٠٠ (١٣) ٠

واستنبط هذا العالم الجليل المستبشـــر ، أن من يدعو بهذا الدعاء أو بدعاء من القلب يتوجه فيه الى الله ، ويسأله بنداء سبحانه (ربنا) ، ويشمل دعاؤه هذا النداء خمس مرات ، يستجيب لـــه ربه ، كما استجاب لهم ربهم بعد المرة الخامسة ! ٠
أخى المسلم ، أختى المسلمة :

أخى المسلم ، أختى المسلمة :

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)

فادعوه بكل ما فى قلوبكم من ايمان ، وتوجهوا اليه ضارعين مبتهلين ، مخلصين لـــه الدين ، لتكونوا مع السعداء ٠٠٠ لتكونوا مـــع الاحبة ٠٠٠ محمدا وصحبه ٠

---

(١٣) الآيات رقم ١٩١ الى ١٩٥ من سورة آل عمران ٠

خاتمة المطاف

لقد رأينا معا ان الدين هو روح الحياة ، وينبوع السعادة ، وعرفنا ان الاسلام يفتح كل أبواب السعادة ... ويدعو اليها ، ويغلق كل أبواب الشقاء ... ويحذر منها .

عرفنا كذلك ان سعادة الافراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة تنهار اذا فقد الناس دينهم ، كما ينهار الجسد اذا فارقته الروح .

واذا كان بعض الناس ينظر بمنظار أسود ، فيرى الحياة مليئة بالمعاناة ، فقد عرفنا ان الدين يجعلك تتغلب على هذه المعاناة ، وأنه يمدك بشحنة من الايمان ، تجعلك قويا بالله .

من أجل ذلك دعوت المسلمين بالفعل أو بالاستعداد الى الحياة السعيدة الباسمة المتفائلة ، فمن استجاب فهو كالجسد الصحيح ينتفع بالغذاء ، ويستجيب للدواء ، ويستقبل الحياة راضيا سعيدا ، والله شاكر عليم .

ومما لا شك فيه انك لحظت انى لم اخترع مقومات السعادة اختراعا ، ولو كانت من اختراعى لكان من حقك أن تقبلها أو ترفضها ، أن تصدقها أو تكذبها ، ولكنك ترى أنها جميعا مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ، أو من أحداث الاولين وعبر التاريخ . وما فعلت ذلك الا لما رأيته من انصراف الناس عن الانتفاع بجوهر الاسلام وعبرة التاريخ (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (١) .

---

(١) الآيتان رقم ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة آل عمران .

ومن سار فى الارض ونظر ، ثم وجد بابا من أبواب السعادة لم أتناوله فى هذا الكتاب ، أو أراد التوسع فى معرفة مقومات السعادة ووسائل اجتناب الشقاء ، فليرجع الى المنبع الاصلى الذى يستقى منه كل السعداء أفضل ما يعرفون
وسوف يجد فيه تبيانا لكل شىء ، فليرجع الى القرآن الكريم (**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** (٢) .

لقد رأيت الناس يفضلون العاجلة ، ويركزون اهتمامهم عليها ، وقليلا ما يذكرون الآخرة ، فأردت ان أثبت لهم ان تمسكهم بالدين يسعدهم فى العاجلة نفسها ، وأن الدين ليس مجرد وعود للسعادة فى الآخرة ، ان الاسلام هو الدين الوحيد الذى يربط الدنيا بالآخرة ، فسعادة الدنيا (عاجل بشرى المؤمن) والعمل الذى ليست له ثمرة فى الدنيا تعود عليك أو على الناس ، ليس له ثواب فى الآخرة ، ومن بين أسباب الاهتمام الشديد الذى وجهه الاسلام الى الفضائل ، انه يريد للانسان ان يحيا سعيدا فى هذه الدنيا . وللمجتمع أن ينهض ويسعد بهذه الفضائل ، وهل يمكن أن يسعد الناس بالرذائل ؟ هل يمكن أن يسعدوا فى ظل الكذب والغش والخداع ؟ هل يمكن أن يسعدوا فى ظل الظلم والقسوة والتنازع والتباغض والتمزق ؟! .

وحقا ان العالم الاسلامى الآن يمر بمرحلة من الشقاء الذى جلبه على نفسه ، وحقا انهم بعيدون عن مواقع السعادة لبعدهم عن حدائق الايمان ، وقد سألنى عالم فاضل عن سر الكتابة فى موضوع السعادة ، والعالم الاسلامى يمر بأزمات طاحنة .

---

(٢) من الآية رقم ٨٩ من سورة النحل .

فأجبته بانى استجيب فى ذلك لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحيتين :

أولاهما : تبشيره بفتح بلاد الفرس والروم واليمن وغيرها أثناء حفر الخندق ، والمسلمون يمرون بأقسى الازمات (**وإذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر**) (٣) ٠

لقد كانت الظروف شديدة القسوة (**هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**) (٤) ٠

وفى هذا الوقت بالذات ، وكان النبى يضرب صخرة استعصت على المعاول فتطاير الشرر ، وقال عليه الصلاة والسلام (الله أكبر ، فتحت فارس) ٠ ثم ضربة أخرى يتطاير منها الشرر ويقول صلى الله عليه وسلم (الله أكبر . فتحت الروم) وفى المرة الثالثة يقول (الله أكبر ، فتحت صنعاء) وأنت تعرف انه قد تحقق للمسلمين ما بشرهم به النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت العصيب ٠

والثانية : قوله صلى الله عليه وسلم ، (**بشروا ولا تنفروا** يسروا ولا تعسروا) وأنا أؤمن أن الانسان حينما يكون متفائلا منشرح الصدر يكون أقدر على التغلب على الصعاب ، وأقرب الى النجاح فى بلوغ الغاية ، وازالة العراقيل ، بينما تنهار أعصاب اليائس وتخور قواه ٠

---

(٣) من الآية رقم ١٠ من سورة الأحزاب ٠

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الأحزاب ٠

وكما أن السعادة والنجاح يؤديان الى مزيد من السعادة والنجاح ، فكذلك الشقاء والفشل يؤديان الى مزيد من الشقاء والفشل ، ولذلك فانى لا أسمح للضباب الذى يغطى سماءنا ويحجب نور الاسلام عنى ، وأعيذها نظرات منك واعية ان تحسب السحاب مستمرا فى مكانه لا يريم ، كما أعيذها نظرات منك واعية ان تظن ان انسانا يصدق الله ثم لا يصدق الله ، أن مجتمعا يتحرك نحو الهدى والنور ، ثم لا يوفقه الله الى الهدى والنور .

لا ينبغى أن تسمح لهذه الظنون بغزو أفكارك الايمانية فمن المؤكد أنه من كان الصدق وسيلته ، صدق العقيدة ، وصدق النية ، وصدق الايمان ، كان رضوان الله جزاءه (**اعلموا ان الله يحيى الارض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون**) (٥) .

أما أنا فمتفائل ، اسجد لله شكرا على نعمة الاسلام ، كما أسجد لله شكرا على اتمام هذا الكتاب ، وأنت .. لو حاولت ان تبحث عن نعمة جديدة تسعد بها ، فسوف تجد الكثير الكثير ... ومنها قراءتك لهذا الكتاب ، ولكن الشيطان سيحاول معك سيحاول ان ينسيك هذه النعم ، وان يصرفك عن الشكر والسجود لتكون مثله ... أمره ربه بالسجود فابى ... ولكن كلا ، .. لا تخضع له ، لا تسمح له ان يستزلك ويضلك ... (كلا ، لا تطعه واسجد واقترب) (٦) .

---

(٥) الآية رقم ١٧ من

(٦) الآية الأخيرة من سورة العلق